الدكتور عبد الكريم الأشتر

المقتطف

عن ديواني

من مجالس الوجد. وأحاديث الألفة والسمر

أحاديث وأسمار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقتطف

من مجالس الوجد وأحاديث الألفة والسمر

أحاديث وأسمار

الطبعة الأولى
حلب - ٢٠٠٢

دار الثريا للنشر
سورية - حلب - ص.ب: ٥٩٢٨ - هاتف: ٤٧٨٥٢٢٧

الدكتور عبد الكريم الأشتر

المقتطف

من مجالس الوجد وأحاديث الألفة والسمر

أحاديث وأسمار

الموافقة على الطباعة
وزارة الإعلام
رقم: ٧٠٤٥٤
تاريخ: ٧/١٠/٢٠٠١

المقتطف من مجالس الوجد وأحاديث السمر: أحاديث وأسمار
/د.عبد الكريم الأشتر.- حلب: دار الثريّا، ٢٠٠٢-٢٢٩، ٢٠سم.

١- ٠٣,٨١٨ أ ش ت م ٢-العنوان ٣-الأشتر

مكتبة الأسد

ع-٢٤٥٧/١٢/٢٠٠١

مُقَدِّمَة

(١)

إذا كنا نعد المقالة التي نكتبها اليوم بنت الصحيفة أو المجلة ، فالخاطرة ، لاشك ، بنت المقالة : حيِّز صغير نسبياً ، يشغله الكاتب بالتعبير عن خاطر يتملكه . تطير شرارته من حادثة يعاينها ، أو موقف يقفه ، أو مشهد يشهده ، أو ذكرى ، أو لقاء ، أو حديث ، أو قراءة في كتاب أو جريدة . قيمته تبدو في قدرة كاتبه على النفوذ ، من خلال ما يرى أو يسمع أو يشاهد أو يختبر ، إلى معنى حيّ ، محدد الأبعاد ، يرى أن يتيقظ له هو ، ويوقظه في حياة الناس من حوله . يلفتهم إليه ، ويلتفت إليه معهم . يغريهم ويغري نفسه بفهمه . معنى مشتق من نسيج الحياة اليومية ، في ميادينها المختلفة ، أو من حركة الفكر ، أو تموّج الإحساس الذاتي بالأشياء . يصوغه كاتبه صياغة قريبة من وجدان الناس ، سهلة ، لطيفة ، واضحة ، لا يذهب وضوحها وسهولتها ، مع هذا ، بقوة الإحساس ودقة القصد .

بهذا المعنى تكون الخاطرة الفنية قريبة من المقالة الفنية ، تنشغل كلتاهما بمجريات الحياة ، على صعيد المعاناة العملية أو صعيد الفكر . يختلط في معالجتهما ما هو ذاتي بما هو موضوعي . وينضم الماضي إلى الحاضر ، والبعيد إلى القريب . ويلتقي الجدّ بالهزل . وتصاغ اللغة فيهما

صياغة مرهفة ، قريبة ، من منافذ الحس . ثم إنهما ، معاً ، تبلغان حداً من المرونة يسع بعض عناصر الصنعة في الأنواع الأدبية الأخرى ، يستعينان بها على استنفاد الإحساس بالفكرة ، وبث الحياة في التعبير عنها ، مثل صور السرد وتصوير الشخصيات ، من فنون القص ، ومثل الصور البيانية ومعطياتها وحساسية الصياغة ، من فنون الشعر .

ثم إنهما تتطلبان قدراً خاصاً من الشفافية وحرارة الروح والميل إلى الفكاهة والسخرية ، مع الاحتفاظ بجدية النظرة الأخيرة إلى الأشياء . وقدراً كبيراً من وضوح الرؤية ، مع فاعلية القدرة على الإيحاء الخفي ، والقرب الدائم من ينابيع النفس الداخلية . على أن هذه الخاطرة تظل ، برغم هذا التقارب كله بينها وبين المقالة ، تنفرد ، نسبياً ، بشدة تكثيف النظرة وحدّتها في الموضوع المطروح ، وبقدر أكبر من التركيز ، ومن حرارة الروح ، ونفوذ الإحساس ، والقدرة على الجمع بين المفارقات . وعند هذا يصبح الفرق بينهما أوضح من أن ينحصر في المساحة المخصصة لكل منهما .

والمهم ، في نهاية الأمر ، أن نجعل من هذه المفارقات والانطباعات المختلفة ، أثراً متماسكاً مشدود الأطراف ، سويّ الخلقة ، مستساغ الطعم ، قادراً على أن يشدّ القارئ إليه . يفيده قدر ما يمتعه ، ويثيره قدر ما يسلّيه ، ويأخذه إليه قدر ما يردّه إلى نفسه ، على نحو نقرب فيه من معنى المسامرة الضاحكة ، على ما فيها من مرارة الهم أحياناً ، أو ما فيه معنى التشاكي أو المداعبة أو المناجاة . والغاية من هذا كله أن نمعن في تقريب أنفسنا من الحياة التي نحياها ، حتى نزداد فهماً لها وفطنة بمعانيها وحقائقها وألوانها .

(٢)

لهذا حاولت ، وأنا أكتب هذه الخواطر التي سمتها وسائل الإعـلام التي نشرت فيها : "أحاديث" ، أن أقرب فيها ، ما استطعت ، مـــن واقـــع الحياة التي نحياها في البيت والشارع ، ومطارح العمل . وأخالط الناس في مواطن الجد والعـــبث ، وأختزن تعليقاتهم على ما يقع لهم وللنــــاس مـــن حولهم . واغتنمت فرصاً أتيحت لي فصورت أطرافاً من حياتي في البيت ، وهي حياة الناس في بيوتهم مع أزواجهم وأولادهم ومخالطيهم ، رميت فيها إلى المشاركة في تعزيز دور المحبة والألفة والفهم والمسامحة في حياتنا ، داخل الأسرة وخارجها .

وعمدت إلى ما يشيع في حياتنا ، في بعض الأوساط ، من الكلف بحفلات الزار وضرب الشيش ، فحضرت بعض مجالسها ، وصورت مـــا يقع فيها للناس الذين تثيرهم هذه المشاهد . واسترجعت بعض طرف المهنة فحكيتها على نحو رميت فيه إلى أن أخفف من جهامة العمل التربوي فـــي الصفوف المغلقة .

ثم إني رأيت بعض الناس لا يلهيهم شيء عن التكســـب . مـــهما جمعوا من مال الدنيا ، كأنهم يظنون أن الموت مكتوب على الفقراء وحدهم . ورأيت بعضهم لا يردهم شيء عن إذلال الناس والعبث بمقدراتهم ، تغريهم بهما قدرتهم على الإفلات من سلطة القانون وسلطة الضمير على حد سواء . فلعل صورة أعمالهم ، إذا رأوها ، تنفع في تذكيرهم بما يحبون أن ينسوه .

فهذه الخواطر والأحاديث والأسمار والمواجد لم تكتب إذن بقصد المتعة وحدها ، ولكنها كتبت ، مع هذا القصد ، لغاية أبعد : أن تجعل الناس ، ما استطاعت ، أقدر على فهم أنفسهم ، وأقرب من حقائق حياتهم . وتجعلهم أحدّ إحساساً بالأشياء ، وأعمق نفوذاً فيها ، وأكثر حباً وأقل شرّاً . وتقوّي فيهم نزوعهم إلى الفرح بالحياة دون الاستهانة بتبعاتها ، وإلى متعة المعرفة دون غرور اكتسابها .

لقد خَفَتَ ، فيما نكتبه اليوم ، صوت المقالة وصوت الخاطرة ، على النحو الذي صوّرته . وطغت على المقالات والخواطر التي تكتب في صحفنا ومجلاتنا ، على اختلاف مقاصدها في أكثر الأحيان ، معالجات تقريرية في الغالب ، تصاغ بلغة صحفية سريعة لا تملك قدرة الإيحاء بشيء يتخطى معانيها المباشرة . ففقد هذا النوع ، في الأعم الأغلب ، حرارة الجنس الأدبي الذي ينتسب إليه ، وتحول إلى قطع نثرية محدودة تنطفئ قيمتها الأدبية بانطفاء اليوم الذي كتبت فيه .

(٣)

إن الذي تضمه هذه الأوراق إذن عدد من هذه الخواطر والأحاديث ، انتخبتها مما كنت كتبته في بعض الصحف والمجلات العربية . تتصل معانيها ، كما قلت ، ببعض نواحي الحياة العربية . لا تبعد عن الهم القومي ، عبر الانشغال ، أحياناً ، بالهم اليومي . ولا تنقطع

عن غناء الإنسان ،عبر غناء الذات . فهي تجمع قضايا الفكر والعمل من نواحي حياتنا المختلفة ، إلى صور الوجدان الفردي أو الوجدان العام .

وقد كان أمامي ، أن أرتبها على النسق التاريخي : أعني أن تتتابع مع الأيام ، على النسق الذي كتبت فيه ، حسب التواريخ المسجلة . ثم رأيت أن أقف عند النظر في المضمون الغالب ، إذ يصعب ، كما نرى ، تحديد مضمون الخاطرة أو مضمون الحديث ، أحياناً ، تحديداً واضحاً ، لاختلاط التداعيات الفكرية والنفسية فيه . قد يغلب صوت الذات فيه ، أو صوت بعض الملابسات الاجتماعية . وقد يخلص لبيان رأي فني أو اتجاه فكري عام ، أو يسوق طرفة تمتاز بدلالتها على حقائق إنسانية عامة .

لهذا عديّت عن حصر المضامين الغالبة ، مستعيضاً ، في تقسيمها ، بالأرقام ، عن تحديد المسميات تحديداً صارماً . فهكذا اجتمعت الخواطر والأحاديث التي عنيت بتصوير بعض مجالس الوجد وما يتصل بها من المواقف أو الكتب أو التعازيم والتمويهات . والخواطر والأحاديث التي غلب فيها القصد الاجتماعي بمعانيه المتسعة جداً التي تشمل أيضاً كل ما يتصل بالحياة داخل الأسرة . والخواطر والأحاديث التي رمت إلى التطريف بقضايا المهنة وهمومها ضمن الخواطر والأحاديث التي رمت إلى التطريف العام ، دون أن نبعد عن قصد النقد ، في أي ميدان من ميادين الحياة والفكر .

أليس مما يثير العجب ، مثلاً ، أن نُمضي هذا الزمن الطويل من عمر " النهضة العربية الحديثة " ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ونحن ما نزال نخوض في حديث الكرامات ، ونجادل في تقديم العقل على الخرافة ؟

إن نشوة الفناء في ذات الله ، يقود إليها التأمل الواعي في خلقه ، واستدعاء دلالاتها ومعانيها ، والارتقاء بالنفس إلى الآفاق التي تليق بالإنسان ، خليفة الله في الأرض ، وتطهيرها من دنس المطامع والشهوات الشريرة ، على اختلاف صورها ، والامتلاء بقوة الحقيقة الساطعة في مظاهر الكون اللا متناهي . فأما الشهيق والزفير ، والانقطاع عن نور العقل ، والاستسلام إلى غيابه في حفلات ضرب الشيش، وما يصحبها ، أحياناً كثيرةً ، من هياج الطبل و الزمر ، أو الرقص في الحلقات ، أو الزعيق في جوف الليل ، فهي دخيلة كلها على تراثنا الروحي الأصيل .

فعلى هذا المثال من القصد النقدي الذي تخلفه بعض صور الوجد في النفس ، أو قريباً منه ، تمس الخواطر والأحاديث جوانب حياتنا الأخرى ، مما لا يحتاج قارئه إلى دليل .

والرجاء أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الحق ، ونفع الناس وإمتاعهم على الوجه الذي اخترناه .

ع.أ.

حلب ١٤٢٢/٥/١١هـ

٢٠٠١/٨/١م

(١)

مجالس الوجد وتوابعها

مجالس الوجد

(١)

حضرت في بعض أطراف حلب ، مجلساً من مجالس الذكر ، فأذكرني مجالس الأذكار التي كانوا ، ونحن أطفال ، يصحبوننا إليها . كانت مجالس يشترك في إحيائها المنشدون ، ويتحرك فيها الناس حركات متناسقة ، على أنغام الأناشيد . أحسبها ، في صورتها اليوم ، مستوحاة من مجالس المتصوفة القديمة . فقد ذكروا ، مثلاً ، أن ابن الفارض ـ أحد كبار شعراء المتصوفة القدامى ـ كان يحضر هذه المجالس ، ويشترك في الإنشاد والرقص ومظاهر التعبير الأخرى عن شدة الوجد ، سعياً إلى الإحساس بنشوة الفناء في ذات الله .

كنا ، ونحن صغار ، في حينا الشعبي ، نتتبع أخبار هذه المجالس. وكنا نكون مفتونين بها. كان يحييها رجال ينتسبون إلى إحدى الطرق الصوفية . وكان لهم زعيم من حمص يحضر مجالسهم أحياناً : شيخ لطيف الطلعة ، أبيض، ممتلئ الجسم ، له لحية بيضاء مسترسلة . كنت أراه وهو يرفع يده فيمسح عليها ، فيلمع في إصبعه خاتم كبير من العقيق .

كنت حين أدخل الدار التي يقام المجلس في فنائها الواسع ، وتقوم من حوله بعض شجيرات الليمون ، تنتشر فيه رائحتها المنعشة ، ينتابني

إحساس بالخوف يصعب تحديد معانيه . ولكني كنت ، فـــي كـل مــرة ، أتجاوزه وأعود إلى حضور المجلس ، كأني أنشد الإثارة التي كنّا نفتقدهـــا في حياتنا الرتيبة .

كان المجلس يبدو هادئاً أول الأمر ، يشيع فيه فتور لم نكن ، نحن الصغار ، نحبه . ثم يبدأ صوت المنشد يملأ فضاء الدار ، ويصـــل إلـــى أسطحتها القريبة المكتظة بنسوة الحي في ملابسهن السود . وكان بعـــض الرجال يميل وهو في مجلسه ، مع صوت المنشد . وفجأة تشـــق الفضـــاء صيحة ترتج لها سقوف الدار ، فنعلم أن المجلس بدأ يخرج من فتـــوره ، ويدخل في مرحلة الوجد ، أو التهيئة لها . على أن صاحب الصيحة ربمـــا أخذه الوجد أخذاً شديداً فدخل في نوبة يظل يختلج لها زمناً قبل أن يعـــود إلى السكون .

لكنا ، نحن الصغار ، كنا نخاف هذه الصيحات ونريدها في وقـت واحد . فكنا نتخذ مجالسنا بعيداً منها ، على درجات البيوت فـــي الـــدور الشرقية التي يقام المجلس فيها ، في أغلب الأحيان . وكنا ، حـــين تأخذنـــا صيحة الرجل ، يلتصق بعضنا ببعض . ثم ننفك ، حين تمضي الصيحــة ، ونعود نرقبهم ونحن ننتظر أن تشتد بهم "الحال" ويفور الذكر .

وكان بين الرجال رجل نعرفه ، ونترقب حضوره . كان رائـــع الصيحات ، متقن الوجد ، يميل فيه إلى الابتكار ، ويتفنن في مفاجأة النـاس بها ، وفي اختيار صورها . فإذا كان الناس في الذكـــر الـــهادئ ، وقـــد استراحوا إليه ، وضع يديه فجأة على كتفي من يتقدمه ، مـــن الجـــانبين ، ومد جسمه بينهما في سرعة خاطفة ، وصاح صيحة خارقة تزلزل القلب ،

ثم انسحب إلى مكانه كأنما شدّه إليه نابض من خلفه . واتخذ ، على الفور ، جلسته الهادئة ، كأنه لم يفعل شيئاً ! فكنا ، نحن الصغار ، تفتننا هذه الحركة السريعة المتناسقة ، ونسميها : "حركة السمكة " ، لأنها تشبهها . فكنا نكاد لا نحوّل أنظارنا عنه ، نرقب ما يقوم به ، إذ يهيئ للحركة الجديدة . وكنا نعرف أن إحدى أصابعه مقطوعة ، لعلها الوسطى ، فكنا نظن أنه قطعها مرة من شدة الوجد ! ثم كنا نراه ، بعد أن يعود إلى جلسته ، يرفع عينيه خفية ، وينظر في وجوه الناس ، كأنه يستطلع أثر الصيحة فيهم ، ويدرس تصميم الصيحة القادمة !

فإذا بدأ الذكر يفور ، نهض الرجال على أرجلهم ، فتحلقوا حلقاً ، ومال بعضهم على بعض وهم يذكرون اسم الله في نغمة جليلة تملأ قلوب الناس بالخشوع . على أني ما كنت أقوى على إزاحة عيني عن ذلك الرجل . فكنت أتتبعه ، وقد أخذ بيدي مَن حوله ، عن اليمين وعن الشمال ، فشبك أصابعه في أصابعهما ، وبدأ يميل معهما على الجانبين . فكنت أنشغل بتتبع موضع الإصبع المقطوعة ، لأرى ما يفعل الرجل الآخر ، عن جانبه ، بإصبعه الزائدة !

ثم ما تلبث الأصوات أن تعلو حتى تملأ فضاء الدار ، وقد انتشرت فيها رائحة شجيرات الليمون المزهرة ، فزادت من نشاط الرجال ، وقوّت من إحساسهم بجمال الكون وعظمة خالقه ، فانهمكوا انهماكاً شديداً في التسبيح . وتمايلوا ، وانتشوا بحرارة الوجد ، حتى خيل إلينا ، نحن الصغار ، أنّ الدار أخذت تدور بالناس . وخالطنا شعور حاد بالانتقال إلى عالم جديد غامض يعيه القلب ولا تدركه الحواس .

لم أكن ، وأنا في هذه الحال من فورة الذكر ، أفلت الرجل من عيني . كنت أتمنى ، أن يطلق صيحة من صيحاته المتقنة التي تهز شبابيك الدار ، وتزيد من وجد الرجال ، وتبعث في النسوة اللواتي تكتظ بهن أسطحة البيوت ، أصوات الاستحسان ، وآهات الوجد .

كانت سنّي لا تزيد عن العاشرة ، أو الثانية عشرة . ولكني كنت ، على ما يبدو ، عميق الإحساس بقوة الحياة . وكان المشهد يزيد من اضطرامها . رفعت عيني مرة إلى سطح الدار القريب ، فأبصرت ، في عتمته التي تخالطها أضواء المجلس الساطعة فتخفف من ظلامها ، وجهاً يسطع بالنور ، تكحله عينان واسعتان ، وتتدلى على جانبيه ، فوق الكتفين ، ضفيرتان سوداوان تنوس في منتصفهما عقدتان بيضاوان ، على شكل الفراشتين . كانت ، على ما يبدو ، فتاة في مثل سني ، صحبتها أمها لتشهد المجلس معها . فما أدري كيف تعلق بصري بها ، فازددت إحساساً بحرارة الوجد التي كانت تلفح وجوهنا في فناء الدار ، والذكر ماضٍ ، وأصوات الرجال وحركاتهم تشد حواس الناس ، وأنا موزع النفس بين نشوة النظر في وجه الفتاة الساطع ، ونشوة الوجد . ثم اندغمت النشوتان ، على نحو لا أعرف كيف أصفه ، فماج في داخلي شعور عميق بالفرح ، خالطه ، على نحو لا أعرف كيف أصفه أيضاً ، شعور عميق بالحزن . وكنت أنتشي بهما معاً ، حتى بات من الصعب عليّ أن أظل في موضعي الذي افترشته على درج الدار ، فنهضت وأنا أحس أني أوشك أن أطير !

ثم غاب وجه الفتاة . وبلغ وجد الرجال غايته . فرأيت الرجل يفلت يديه من أيدي من حوله ، في حلقة الذكر ، ويتساقط على الأرض ،

في حركة لولبية خاطفة ، وهو ينتفض على نغمات الذكر ، ويلوي وجهه على الجانبين ، كأنه لا يعي شيئاً مما يقع حوله ، إلا ذكر الله . والناس إلى جانبه وقوف يتمايلون ، وقد فاضت في وجوههم حرارة الذكر ، وخطفهم الوجد عن أنفسهم ، فلم يبالوا به . وعادت الحلقة فالتأمت من جديد ، وتجاوزت الرجل المستلقي فصار في وسطها .

وعلت الأصوات كثيراً ، والرجل الكبير القادم من حمص لم يغادر مكانه في صدر المجلس ، يرفع يده ، بين الحين والحين ، فيمسح على وجهه ولحيته ، فيلمع في إصبعه خاتم العقيق . ومن تحته فراش فرشوه له وزينوه بالسجاد . تفوح من منديله الأبيض الناصع ، وكان يخرجه من صدره ، بين الحين والحين ، روائح مختلطة من المسك والياسمين والقرنفل ، تسبح في جو المجلس ، وتختلط بعبير الليمون المنبعث من شجيراته في باحة الدار . كان يلصق المنديل بأنفه أحياناً ، وهو ما يفتأ يميل برأسه على نغمات الذكر ، فتخط لحيته البيضاء المسترسلة ، في حركاتها ، أهلّة من نور لا تمسكها العيون .

فلما طال أمر الرجل وهو مستلق على الأرض ، وقد وهن من شدة الوجد وكثرة الصياح ، يدور بوجهه على الجانبين ، لا يشغله عن ذكر الله شيء ، وأخذت أصوات النساء المتلفعات بالسواد ، على سطوح الدار ، تعلو باللغط ، أشار الرجل الكبير بيده ، فتسابق بعض الناس إليه ، فانكبوا على الرجل المستلقي ، وهمسوا في أذنه همسة انتفض لها ، ونهض فمسح وجهه وهو ينظر في وجه الرجل الكبير القادم من حمص ، كأنه يرجو أن يكون أبلى بلاء حسناً يرضى عنه !

لكني لم أعد أرى هذا الرجل ، بعدها ، في مجالس الوجد . وسمعنا ، نحن الصغار ، من يقول : إن الرجل الكبير القادم من حمص قطعه عنها ، فأسفنا عليه أسفاً شديداً .

على أني ، من دون أترابي الصبيان الذين كانوا يحضرون معي هذه المجالس ، ما أزال ، إلى اليوم ، يطالعني ، وأنا أرفع عيني إلى سطوح المنازل ، وجه يسطع بالنور ، تكحله عينان واسعتان ، وتنوس على جانبيه ، فوق الكتفين ، من طرف الصدر ، ضفيرتان سوداوان تقف عليهما ، في الوسط ، عقدتان بيضاوان ، على شكل الفراشتين !

١٩٩١/٨/٢٩

(٢)

في أحد هذه المجالس التي حدثت القارئ عنها ، قالوا : إنهم يُخرجون الليلة شعرة النبي ! وكانوا استحضروا لهذه الليلة دفوفاً كبيرة . فحين استوفوا الأناشيد وصاح أصحاب الذكر صيحاتهم المتقنة التي تشق فضاء الدار ، وقف الرجل الكبير القادم من حمص ، فنهض له الناس جميعاً . فمد يده إلى صدره فأخرج منديلاً ملفوفاً لم أكن رأيته له ، تفوح منه ، فيما يبدو ، رائحة ذكية ، ووقف عند الباب . فحين بدأ الناس يقتربون منه ، أخذ يمد إليهم يديه بالمنديل ، فيدس الواحد منهم أنفه فيه ، فتأخذه الرائحة التي تعبق فيه ، والدفوف تضرب من حوله ، والناس قيام يزحم بعضهم بعضاً ، يقتتلون على الوصول إلى المنديل . فكان الرجل إذا خلص من هذا الزحام لم يكد يعي شيئاً مما حوله إلا أنه مس شعرة النبي !

فلما انحجب المشهد عني ، لازدحام الناس عليه ، صعدت درجات البيت كلها و أطللت على الشيخ ، فرأيته ما يزال يرفع يديه بالمنديل وينقله من أنف إلى أنف ، وقد غاب من تحته خاتم العقيق .

ثم علا صياح الناس وتكبيرهم ، واشتد ضرب الدفوف ، فوجدت نفسي أندفع إلى الشيخ ، بين أرجل الناس ، أريد أن أصل إليه . وأطبق الناس عليّ فأوشكتُ أن أختنق من شدة الزحام . فكأن الشيخ رآني ، فأشار إلى الناس فانشقوا عني ، وفسحوا لي طريقاً إليه . فلما صرت أمامه غلب عليّ الانفعال ، وأخذت أمد له أنفي وأرتفع على رؤوس أصابعي ، أتعجل الوصول إلى المنديل . فقرّبه مني ، وصبر عليّ قليلاً ، فشممت منه رائحة سكنت رأسي زمناً ، لشدتها . ورفعت يدي كأني أظهر أني أريد أن أتحسس يدي الشيخ ، وفي نفسي أن أمس خاتم العقيق الذي أرقبه دائماً . فسارع الشيخ فرفع المنديل عني . وزحمني الناس فأخرجوني .

فلما التقيت بالصغار الذين صحبوني ، رأيت الحسد في أعينهم ، فهم لم يستطيعوا الوصول إلى الشيخ .

سألني أحدهم في لهفة : **ماذا رأيت ؟**

فلو قلت : إني لم أر شيئاً أضعت هذا السبق كله . أجبت في اعتداد :

ــ شعرة تفوح منها أطيب روائح الأرض !

١٩٧٩/١/٢١

(٣)

وسألوني يوماً: **أما تريد أن تشهد معنا حفلاً " لضرب الشيش " ؟**

وكنت قبلها، منذ سنين طويلة، حضرت في بعض أطراف حلب، مشهداً من مشاهده، رأيت فيه إلى جانبي رجلاً أجنبياً قالوا : إنه من ألمانية، يحب أن يشهد حفل الضرب بالدبوس! وما أعرف من دعاه إليه.

أدخلونا داراً شرقية فسيحة، فأجلسونا في غرفة واسعة. وكنا في فصل الشتاء. فأقبل رجال معهم دفوف كبيرة، أخذوا يضربون عليها ضرباً يصدع الرأس. ثم أقبلوا بنار موقدة، فألقوا فيها دبوساً ضخماً من الحديد، أخذوا يديرونه فيها حتى أصبح كقطعة الجمر، والدفوف تأخذنا من كل صوب، ووهج النار يلفح وجوهنا.

وأقبل رجل قالوا : إنه "مسقي"، رأيته نحيلاً أخمص البطن. فلما اشتد ضرب الدفوف أخذه الهياج، فابتدأ يدور في أنحاء الغرفة وقد اشتعلت عيناه بمثل جمر النار. ثم تناول الدبوس واقترب منا، وأخذ يديره في وجوهنا، فارتسم به خط من اللهب المشتعل، صار، بعد قليل، دوائر متداخلة تزيغ البصر.

واشتد ضرب الدفوف حتى هز الجدران، واختلط بصرخات لم أعد أعرف مصدرها. وعلت الأصوات بابتهالات حارة اتحد فيها الجالسون في أقصى الغرفة، وهم يميلون على الجانبين، ويهزون رؤوسهم هزاً عنيفاً.

تقدم الرجل النحيل فكشف عن بطنه وصدره ، وحرّك عضلات بطنه حتى جمعها على نحو خاص ، وشكّ الدبوس في جنبه فأنفذه من الجنب الآخر . خيل إليّ ، للحظات ، أني أشم رائحة لحمه المحترق . دار أمامنا ، والدبوس في جنبه ، دورات محمومة ، يرينا أن الدبوس اخترق البطن من الجنبين . ثم سحبه منها وقد امتلأ وجهه بالعرق ، وجحظت عيناه ، وأقبل يمسح على مدخل الدبوس بريقه ، من الطرفين !

وارتفع تهليل الناس له ، فازداد هياجه . وأشار فارتفعت الأيدي بالدفوف من جديد . وعاد فشكّ الدبوس في النار ، وأخذ يجيل بصره في الغرفة حتى وقع على ولد كان يتتبع المشهد في خوف واضح . سمعت أنه ابنه ! فأشار إليه إشارة فهمها الولد على ما يبدو ، فأبوه يريد أن يعيد المشهد فيه ، ليدل على " كرامة " الأسرة كلها ! رأيت الولد ، وقد انعكس لهب النار على وجهه ، فبدا كتمثال الشمع ، وأخذ يرتعد . فتقدم منه أبوه يريد أن يجره إلى وسط الغرفة . فصاح الولد،وأخذ يحتمي بالناس ويتوارى وراءهم ، وعلا بكاؤه . فكأنما أصاب الرجل مس من الجنون ، فاندفع في صدور الناس يريد أن يصل إلى ولده . وسنحت للولد فرصة ففتح الباب وأطلق ساقيه للريح وهو يصيح ، من شدة الهلع ، صيحات تقطع القلب . نهض الناس حينذاك في وجه الأب يحجزونه ويسكّنون غضبه . فاستدار إلى باب لم أكن رأيته في الغرفة ، فنفذ منه ، وغاب عنا ، وانفض الناس .

حاولت أن أنام تلك الليلة ، فكنت أغمض عيني ، فأرى الولد يركض في أنحاء البيت كالأرنب المذعور ، والدفوف تضرب في رأسي ،

وحرارة النار تلفح وجهي . وأدفن رأسي في الوسادة ، فتقدح فـــي عينـــي دوائر اللهب ، وتملأ أنفي رائحة اللحم المحترق ، فلا أعـــرف مـــن أيـــن أهرب بنفسي . ثم لما نهضت في اليوم التالي كنت كمن قضى ليله تحـــت وطأة كابوس ثقيل . وخيل إليّ أني كنت أزور مدينـــة تعـــج بالأشـــباح . واشتدت عليّ الحمى بعدها ثلاث ليال كاملة .

١٩٨٩/٩/٤

(٤)

وحج أحد أقربائي من الشباب ، وكان يعرفنـــي معرفـــة حســـنة ويعرف طباعي وما أحب وما أكره ، ويمازحني ، ويقبلني على علاتـــي . فلما عاد دخلت أهنئه بسلامة الوصول .

كان المجلس حافلاً بالمهنئين . وأنا أكره المجالس الحافلة ، وأكره أن أقبل عليها ، ويداخلني فيها ارتباك لا أعرف سببه .

نهض قريبي الحاج إليّ حين رآني عند الباب ، وكان اتخذ لنفســه لباس أهل الحج ، وتحلّى بلحية خفيفة لم أكن أعرفها له ، وفاحت منه ريح طيبة . فمدّ يده إليّ وجذبني فضمني إليه ضمة عنيفة ، وحك خدي بخـده ، يريد أن يظهر شـــدة شوقه إليّ ، حتى نفذت في جلدي شـــعرات لحيتـــه الجديدة . وأخذ يرفع صوته بالترحيب ، فزاد ارتباكي ، ولم أعد أعرف ما أقول . بدأت أردد ألفاظاً أحفظها لهذه المناسبة : حجـــاً مـــبروراً وســـعياً مشكوراً والعقبى لك بالعودة إن شاء الله .

رأيته يبتسم على نحو أشعرني بما قصد إليه ! وتهاويت على مقعد وجدته أمامي ، وهو يأبى إلا أن يقعدني في صدر المجلس . رأيت العيون تتحول إليّ ، فاحمر وجهي ، وبدا عليّ الارتباك .

ثم تحول الجالسون جميعاً إلى تحيتي ، فحرت في الرد عليهم ، وأخذت أردد كلاماً لا معنى له . وبدوت لنفسي في حال أعرفها ، وأعرف أني أقرب ما أكون إلى ارتكاب الهفوات في مثلها ، كأني أدفع بها عن نفسي الإحساس بالعجز والارتباك .

نظرت في الجالسين خفية فرأيت أكثرهم من الشيوخ . ولم أجد بينهم أحداً أعرفه ، فتنفست نفساً ثقيلاً ، وتمنيت بيني وبين نفسي لو أني كنت جلست في بيتي وهتفت إلى قريبي فهنّأته بسلامة العودة !

كان قريبي الحاج يتتبعني بعينيه ، يريد أن يضحك . فما كادت الأنظار تتحول عني حتى عاد فوجّه الحديث إليّ ، فرأيت الجالسين كلهم يتحولون إليّ من جديد . قال وهو يبتسم :

– كنا نتحدث في ظاهرة حمام مكة الذي يطير عن جوانب البيت ، لا يقربه ولا يطير فوقه ! فما رأيكم في هذه الظاهرة ؟

بدوت في حال من يقبل على الاختناق ، وبدأتُ ألجلج في الكلام وأعيده ، دون أن أعني شيئاً ، فإني كنت أظن أن سماء البيت الحرام ، يلزم أن تكون موصولة بسموات الله ! ورأيت قريبي الحاج يغالب نفسه على الضحك . أدار وجهه عني وأخذ ينشغل فيصب لي كأساً صغيرة من ماء زمزم ويقدمها إليّ .

تجاوزت الموقف دون أن أقول شيئاً وشربت الماء ، فذهب عن نفسي كل كلام يقال في هذه المناسبات ، وسمعتني أقول :

ـ شربت ماء زمزم مرة ، فوجدت فيه ملوحة ، وأجده الآن ماء عذباً ... تراهم سلطوا على البئر ماء آخر؟

رأيت بعض الجالسين ينتفضون كأني نلت من مكانة البئر المباركة .أخذت أدور بعيني أريد مخرجاً ، فرأيت رجلاً كبيراً منهم يبتسم لي كأنما أخذته الرأفة بي ، ويقول في صوت أنيس لا أعرف كيف أصفه الآن :

ـ أبشر يا أستاذ ، فماء زمزم يعذب دائماً في فم الراضين الطيبين !

١٩٧٨/١٢/١١

(٥)

ووقفت يوماً في حينا القديم ، فرأيتهم يمدون في أرض الشارع بسطاً كثيرة . سألتهم عنها فقالوا : رجل يقبل على حصانه بعد قليل ، فيستلقي الناس أمامه ، فيدوسهم بحصانه ، فما يقع الحافر على عضو إلا شفاه ! ورأيت قريباً لي ، أعرف أنه يشكو وجعاً في صدره ، يسارع فيلقي بنفسه في الطريق ! ثم أقبل صاحب الحصان وقد خمّر رأسه بخمار أبيض ، فأخذ يدوس الناس بحصانه على أقفيتهم في غير مبالاة ، ومن حوله رجال يضربون بالدفوف ليهيجوا الناس . فلما مضى نهض قريبي

وأقبل عليّ يريد أن يريني أنه لم يلحق به شر ! وثنى يده على جنبه وأطلقها ، وتحسس صدره ، وأراني أنه يتنفس نفساً صافياً مريحاً !

ثم علمت في اليوم التالي أنه قضى ليلة سيئة . سمعته يقول : هل تصدق ؟ خالجني الشك وأنا استلقي على الأرض ، فوقع الحافر حينئذ على الجنب الأيسر فهاضه !

١٩٧٩/١/٨

(٦)

وأكون في حلب ، فيخطر لي أحياناً أن أزور الأسواق الشعبية التي تقام كل أسبوع مرة ، مثل سوق الجمعة أو سوق الأحد ، وتباع فيها الحاجات القديمة . فإني أجد فيها أحياناً طرائف لا أجدها في الأسواق المعروفة. اشتريت منها يوماً صندوقاً من خشب نادر له دلّاية نحاسية على هيئة اليد المضمومة ، رآها واحد من أصحابي المغرمين بالعاديات ، فتمناها لنفسه وأسف على أنها لم تقع له .

نزلت هذه السوق مرة ، فأبصرت من بعيد منقلاً من النحاس ، تتدلى على جنبيه أذنان نحاسيتان لطيفتان مخرمتان تخريماً رائعاً . فما كدت أقترب منه حتى حمله رجل كان أسرع مني إليه ، فدفع ثمنه البخس ومشى به أمامي ، وقد تعلقت به أنفاسي !

أردت أن أنفّس عن كربي ، فأخذت أتأمل إلى جانبي كتباً بسطها صاحبها على الأرض ، وقعد إلى جانبها ، وحمل بيده مظلة قديمة ممزقة

يستتر بها رأسه من حرّ الشمس . قرأت عناوين غريبة : (السحر الأحمر ـ كتاب أثري قديم) ، (الطب الروحاني للجسم الإنساني) ، (دليل الحيران في طالع الإنسان) ، (المندل والخاتم السليماني والعلم الروحاني) ، (سحر الكهان في حضور الجان) ، (الكباريت في إخراج العفاريت) ، (النجاح في علوم النفس والتنويم والأرواح) !

ملْت على الأرض ففررت هذه الكتب الصغيرة بيدي ، فوجدت ورقها رديئاً مثل ورق الجرائد اليومية . ووجدت بعضها مطبوعاً على ورق أحمر مثل الورق الذي نجده في الكتب الرخيصة . ووجدت أكثرها من جمع وتأليف ((الأستاذ الكبير عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي لمصر والأقطار الشرقية)) ، مطبوعة على نفقة مكتبات تقع في شارع الأزهر ، وتتبارى ، على ما يبدو ، في تصديرها إلى الأسواق !

لو جمعوا بسطة الرجل كلها ، وسألوني أن أقبلها بأجرة حملها إلى البيت رفضت ، فما أفعل بها ؟ وذهلت إذ وجدتها مرتفعة الثمن ، أغلى من الكتب التي يكتبها أساتذة الجامعة ! فاستبد بي الفضول ، فاشتريتها وحملتها وأنا أؤنب نفسي :

— لا تنتهي من هذا الوسواس أبداً .. تصرف مالك في شراء هذه الخرافات ، والأولاد أحوج إليه ، فلو حجروا عليك ما ظلموك ! وإذا لم يكن هذا هو السَّفَه الذي حدثت عنه كتب الفقه ، فكيف يكون ؟

في البيت أخذت أقرأ أطرافاً من هذه الكتب ، فكأني دخلت عالماً غريباً لا صلة له بهذا العالم : وصفات وأدعية وطلاسم مختلطة ، وتمائم وحجب وأرقام وأختام وجداول وأبراج ، وكلام لا معنى له يحكي كلام

الجن ، في رأيهم ، أو يخاطبهم بأسمائهم . وهي كلها موجهة في طلب الأمنيات البعيدة ، وفي صرف القلوب أو استمالتها ، وتهييج الشهوات أو إطفائها ، أو إحضار المحبوب أو سلب عقله أو عقد لسانه ، أو تسليط الأمراض على الضرائر والخصوم مثل الرمد والصرع والنزف ووجع الأسنان ، أو الشفاء منها ، أو عزل الظالمين وشلّ قدراتهم ، أو منع العين الشريرة ، أو تسليط النوم على الأطفال حتى لا يبكوا ! أو إزالة البغضة ، أو حل المعقود وفك المربوط لتزويج البنات ، أو توجيه الخطّاب إلى العوانس ، أو رجوع المطلقات إلى أزواجهن ، أو الكشف عن السراق واللصوص ، أو انشقاق الأرض عن المدفونات والكنوز ، أو لبس طاقية الإخفاء حتى لا يرى لابسَها أحد من الناس !

ولأن هذه الأخيرة (طاقية الإخفاء) من أمنيات هذه الأيام الصعبة ، إذ يستطيع لابسها أن يدخل بها المؤسسات الاستهلاكية ، من أبوابها الخلفية ، ويطير بما حوته صناديقها من فوق رؤوس الناس ، كما يفعل بعض أصحاب الحظوظ ، أنقل إلى القارئ هذه الوصفة بحروفها :

" تصوم لله تعالى ثلاثة أيام .

تفطر على خبز الشعير بالزيت الطيب .

تقرأ الدعوة كل ليلة إحدى وثلاثين مرة .

وتكتب الخاتم بأسماء الجن المختارة ، تقول :

توكلوا يا خدام هذه الأسماء وأخفوني عن أعين الناظرين ، بارك الله فيكم وعليكم . وتحملها على عضدك الأيمن ، فإنه لا يراك أحد !

١٩٨٧/٦/١٩

(٧)

ثم إنه بدا لي أن ما كتبته عن كتب السحر والمندل والعلم الروحاني لم يَضِعْ أثره . فقد وردت علي ثلاث رسائل غريبة :

الأولى من رجل يقول : إنه من أصحاب أولي الكرامات ، ينذرني فيها بالويل والثبور ، لتجرئي على فض الأختام وكشف أسماء العفاريت وأسرارها ، والسخرية من أفعالها وقدراتها . ويقول : إنها قادرة على أن تجعل الأوراق التي أكتب عليها أسماءها تمشي وحدها بين يدي ، دون أن يحركها أحد !

والثانية من إحدى قريباتي العجائز في حلب تقول : إن زوجها الذي مات عنها ، منذ عشرين سنة ، كان أخبرها أنه دفن في أرض الدار الشرقية التي تسكنها مائة ليرة ذهبية « رشادية » . وتطلب مني أن أرسل إليها بكلمات الدعوة التي تنشق لها الأرض عن الدفائن والكنوز ، فقد سمعت من أحد أقربائنا أنني كتبت عنها في الجريدة !

لا أكتم القارئ : غاية ما فهمته من الرسالة أن في أرض الدار التي تسكنها ذهباً مدفوناً يتحدث به الناس . فالدعوة معَي ، وستموت قريبتي عاجلاً أو آجلاً . ثم إن هذا الذهب ظل مدفوناً أكثر من عشرين سنة ، فما ضر أن يبقى سنوات أخرى قد لا تطول بإذن الله !

على أني يلزمني ألا أكتم الدعوة حتى لا " تنقلب عليّ " كما يقول العارفون ، وهي في الصفحة ٢٤ من كتاب المندل الذي أشرت إليه :

« إذا أردت شق الأرض وإظهار الكنوز والدفائن ، فاعمد إلى المحل الذي تريده وربّع الأرض (اقسمها إلى أربعة أقسام) . وخذ أربع بيضات بنت يومها (طازجة) وضع كل بيضة في زاوية ، وقف في وسط المكان ، واتلُ القسَم إحدى عشرة مرة وأنت ماسك المجمرة وعليها بخور ، فإن البيض يجتمع في المحل الذي فيه الكنز المدفون » !

« واعلم إذا ربّعت المكان وحصل اجتماع البيض بعضه إلى بعض ، فابعُد عن مكانه ، وأمسك المجمرة بيدك اليسرى ، وألقِ البخور بيدك اليمنى ،

واتلُ القَسم إحدى وأربعين مرة ، فإن الأرض تهرب وتنشق ويظهر لك ما فيها من الذهب والفضة ، فخذ رزقك منه ، واحذر من الرفقة والسلام)) !

أما الرسالة الثالثة فوردت من امرأة لها ضَرّة تريد أن ((يسيح دمها على الآخِر)) كما تقول . وفي الرد عليها أقول :

ربما تكفيها المرحلة الأولى التي تنزف فيها ضرتها ((بالدم السايل والوجع الشديد)) ، أو المرحلة الثانية التي يجري فيها دمها ((كما يجري الماء في الأنبوبة ، ولا ينقطع ليلاً ولا نهاراً)) !

فأما المرحلة التي تريدها (وهي أن يسيح دمها على الآخر)،فيلزمها ((أن تدفن الخاتم المكتوب في قناة جارية أو بركة ، وتغمره قدر أربعة قراريط ، وتطرحه فيها وتغطيه بالطين . فإذا أبطأتْ عنها ضَرّتها سبعة أيام فقد حققت بغيتها ، إذ تكون الضرّة المسكينة في حال النَزْع ((ينزف دم بطنها وتموت)) ، وتحمل هي ،كما يقول الكتاب،((ذنبها إلى يوم القيامة)) !

* * *

الطريف أن ولدي ــ وهو يتقدم إلى فحوص الشهادة الثانوية ــ سألني بعد أن قرأ هذا الحديث :

ــ أليس هناك خاتم خاص لتيسير الفحوص أدخل به قاعة الامتحان ؟

وسمعته أمه ، فقالت لي وهي تضحك :

ــ أليس الأجدى عليك أن تخلع لباس أستاذ الجامعة وترتدي لباس أهل الكرامات ، وتقعد في البيت تكتب الحجب والأختام ، وتفك العقد، وتستخرج الدفائن والكنوز ، وتستغني عن تعب القلب وغُلْب الأيام وما تسمونه في كتبكم : ((حرفة الأدب)) ؟

١٩٨٧/٦/٢٦

(٢)

الطفولة والصبا

رمضان الطفولة

تبعد اليوم في ذهني صورة الحي الشعبي الذي نشأت فيه ، في حلب ، فقد انقطعت زياراتي له منذ زمن طويل . مات من حولي أناس يصعب أن تتمثل صورة الحي في الذهن وهم بعيدون عنها. ولأن الموت ، مهما فلسفناه وتفلسفنا فيه ، يجرح القلب ، فإنا نحاول أن ننساه وننسى ما يذكرنا به .

ولكن تبقى لرمضان في هذا الحي العريق نكهة خاصة ، فقد كانت الدنيا تشرق فيه بنور جديد : تتزين السوق . وتفيض دكاكينها بالخيرات . وتلتف من حول مئذنة الجامع الذي بني أيام المماليك ،حبال من نور ، كانت تتقدح في أعيننا ، نحن الصغار ، فتولد فينا ألواناً ساحرة من الوجد .

كان النهار يبدو في أعيننا ،عند الصباح ، عامراً بالنشاط ، لا تفتر الحركة فيه . ولكنه يبدأ يميل ، مع تقدم النهار ، إلى نوع من الفتور هو أشبه بالنعاس . وكانت تقع على أطراف الحي ساحة ترابية ، كنا ، نحن الأولاد ، نتجمع فيها ، من بعد العصر ، نتشاغل باللعب فيها عن ساعة الإفطار . ولكنا كنا ، بين الحين والحين ، نختلس النظر إلى جدار الساحة الشرقي ،والشمس توالي صعودها عنه وقت الغروب .

فإذا اقتربت هذه الساعة ، ونحن في أشهر الصيف ، ركضت إلى البيت ، فألقيت نظرة إلى المطبخ الذي يقع في زاوية الدار الشمالية ، وقد انبعثت منه روائح ساطعة . وتكون أمي غسلت أرض الدار ، وسقت الزروع المصفوفة من حولها ، وبسطت قريباً منها ، بساطاً فرشت من فوقه فراشاً خفيفاً أسندت وسائده إلى تنكات الزرع ، وقد فاحت منها روائح الفل والعطرية ، فعطرت ساعة الإفطار ، وأشاعت في أنفسنا إحساساً عذباً بفتور الغروب .

وتشتد الحركة في البيت مع الدقائق الأخيرة . وتعلو الأصوات في بيوت الجيران . وأسمع من المطبخ زفرات مكتومة ، فأعلم أن أمي تصب الطعام الحار في أوعية المائدة ، فيتصاعد بخاره ويغطي وجهها ، فتزفر منه . أُسرِع حينذاك فأتناول الكرسي الصغير ، فأركز فوقه إحدى الصواني الكبيرة ، وأقرّبه من الفراش ، لتتحلق الأسرة من حوله . ثم أطوي درج البيت إلى السطح ، فأتسلق ستارة صغيرة من الحجر ، تفصل بيننا وبين جيراننا في الحي ، ويكون بعض أولادهم تسلقوها ، فارتفعت أصواتنا جميعاً ، وعيوننا معلقة بالمئذنة :

— ((**شعلت .! .. لأ ..! شعلت ..**)) !

ثم نعود ، بعد الإفطار ، إلى سوق الحي ، وقد انطلقت الطاقات المحبوسة ، وامتلأت الطرق بالصياح والأغنيات والأناشيد . وأخذ الأولاد يدورن ، في أيديهم أعواد القصب ، في رؤوسها نجوم من أوراق التلوين يلوحون بها في الهواء ، وقد ارتدوا قنابيزهم البيض الخفيفة . وبعض رجال الحي ، وقد سمعوا أذان العشاء ، يدخلون الجامع على عجل ، ليصلّوا فيه

صلاة التراويح الطويلة . ويسمع الأولاد ، من بعيد ،صوت الإمام يكبّر على رؤوس الركعات ، فينتابهم إحساس رقيق بالخشوع لا يعرفون معناه . وتتقارب رؤوسهم أحياناً وهم يتهامسون في عجب بالغ :

ـ يا سلام ! عشرون ركعة !

ولكن ساعة السحر كانت تكون أشد حرارة ، فقد كنا نفيق على أصوات التسبيح المنبعثة من المآذن القريبة. فكان يخيل إلينا ، في بعض الأحيان ، أن جوقة الملائكة تجوب ساعتها السموات بأصواتها العذبة .

وكان لنا جيران يطرقون علينا الباب ، يسألون عن ساعة الإمساك: متى تحين ؟ كانوا قريبين مناجداً ، إذا فتحوا بابهم أصبحت الداران داراً واحدة . وكانت لهم ابنة صغيرة في مثل سني . فكانوا ، أغلب الأحيان ، يرسلونها في سؤالنا عن ساعة الإمساك . كنت أنتظرها على الباب ، فأقف أتملّى وجهها اللطيف في ضوء الباب المفتوح . كانت ترسل شعرها في ضفيرتين شقراوين تنوسان على صدرها ، وتربطهما ، عند نهايتهما ، بشريط أبيض . فكنت ربما مددت إليها يدي فسويت لها الشريط ، ومن حولنا تتعالى أصوات التسبيح تملأ الدار . فكنت أحس أني في عالم مسحور ، منقطع عن الزمان والمكان . وأقعد بعدها أتناول طعام السحور ، وأنا في نشوة غامضة كنت أحار في فهمها .

ثم أعود إلى الفراش ، وقد علت أصوات التسبيح ، وتجاوبت بها الآفاق . فأستلقي فيه وأغمض عيني ، تحملني أمواج خفية أحسها تطوف بي عند حوافي الأرض ، وأغيب في طياتها الشفافة ، في عالم بعيد كان يبدو لي عامراً بالبهجة ، تختلط فيه احساسات متضاربة . فيمتلئ الفضاء

بحنين لا أعرف مصدره ، وتفيض نفسي بالسكينة حتى يطفح بها كل شيء من حولي . حينذاك كنت أتسع فما أعرف أين أنتهي ، وينتابني إحساس عميق غامض بوحدة الأشياء والكائنات ، وأصوات التسبيح تملأ الفضاء وتصلني بكل شيء حيّ في الكون .

أفقت مرة ، وأنا صغير لا أذكر سني ، على هذا الترجيع الرطب ، تردده من رؤوس المأذن ، أصوات اجتمعت كلها في صوت واحد : كأنها سحابة تغطي أفق الليل ، بعيدة ، عميقة ، نافذة . فشملتني قشعريرة حادة ، وشعرت أن صوتي انحبس في صدري ، سدّته غصة لا أعرف سببها . ثم انخرطت في بكاء لا أقوى على رده ولا على كتمانه . وسمعتْ أمي صوت بكائي فأسرعت إليّ تضمني إلى صدرها وتقول في لهفة وانفعال :

ـ ما الذي رأيته في المنام ؟

لم أشأ أن أخبرها ، ولا أن أخبر أحداً . فلو أخبرتهم لم يصدقوني. وماذا أقول لهم ؟ أبكاني التسبيح ؟

* * *

كان هذا رمضان الطفولة ، وقد مضى به الزمان . وجاء رمضان اليوم ، وقد خبت فيه ، وا أسفاه ، حرارة الروح ، وانطفأت رغبات العمر . فمن أين تهب اليوم روائح الفل والعطرية ؟ وأين تقع اليوم الطرقة المنتظرة والضفيرة الشقراء ، وقد ماتت سلمى ؟

١٩٩٨/١/١٢

في أيام العيد

لم يكن العيد يعني لنا أشياء كبيرة كالتي أصبح يعنيـــها اليــوم . ولكنها كانت أشياء ، على صغرها ، تبعث البهجة . كنا نكاد لا ننام ليلــة العيد . أرى أمي وهي تهيئ لنا ألبسة العيد ، فتمدها على المقعد الخشـــبي الطويل المغطى بالحرير الدمشقي المزهّر ، وتغطيه بشال طويــل . فــإذا أفقت في الليل ، وكان لابد أن أفيق أكثر من مرة ، تأملته فـــي ســكون ، فشملتني نشوة طاغية أتمنى أن أحس مثلها اليوم للهبات الكبيرة .

ثم تشمل البيت في الصباح جلَبة شديدة : فقد قدم أبي من صـــلاة العيد ، وفاحت من المطبخ البعيد روائح تملأ ساحة الدار . فأركض حافيــاً إليه وأنا أعرك جفوني من أثر النوم ، فتمدّ أمي يدها إليّ تسألني أن أعينها في تهيئة المائدة . ثم يغيب عني وجهها في طيات البخار وهي تكشف عنها القِدر .

فإذا انتهينا من إفطار العيد ، وقد ارتفعت شمس الضحى ، ارتدينا ألبستنا وأخذنا نخطر فيها . وامتلأ الحي بصياح الأولاد . وجاءت ســلمى الصغيرة بنت الجيران وقد ارتدت ثوبها الزاهي ، وأرسلت شعرها فانسدل على كتفيها ، وعلّقت في كتفها محفظتها الصغيرة ، وابتدأت تحكي لنا مــا وقع لها وهي تدور من حول أضحية العيد : حاولتْ أن تطعمـــها بعــض

الحشائش فأدارت رأسها عنها ، ومدت رأسها إلى الماء ، ثم عافته أيضاً . وأخـذت طوال الليل تئن أنيناً موجعاً كأنها كانت تحس بـاقتراب سـاعة الذبح . كانت سلمى ، وهي تحكي حكايتها ، تـهز رأسـها كمـا فعلـت الأضحية وهي تدير رأسها عن الماء ، فيضطـرب حاجباهـا المقوسـان الصغيران على نحوٍ ما أزال أتمثله إلى اليوم !

وكان يشيع في حياتنا تقليد أظنه انتهى اليوم ، فقد كان أقرباؤنـا يوزعون علينا العيديات . فكنا نركض بها إلى الساحة الترابية القريبة مـن سوق الحي ، حيث يكون صاحب "صندوق الدنيا" حطّ صندوقـه ونصـب الكرسي الطويل من أمامه ، وتهيأ لجمع العيديات من جيـوب الأطفـال ، وهو يصيح بصوته الأجش :

ـ "تعا تفرج يا سلام ! على عنتر الهمام"!

كان الصندوق وما يعرض فيه من الصور منتهى ما تصل إليـه أحلامنا . ولو وزن اليوم بشيوع الفضائيات في كل بيـت بـدت المسـافة طويلة جداً . كأنّا كنا نعيش في كوكب آخر ! ولكنا كنا ، مع هـذا ، نجـد للحياة طعماً لا يجد مثله أطفالنا اليوم : كنا أكثر بساطة ، وأقل تطلعاً إلـى امتلاك الأشياء . وكنا أقرب إلى أنفسنا إذ كنا أقرب إلى منابع تاريخنا وما يشيع فيه من صور العيش .

ثم يأخذ الأهل بالتزاور . كانوا ، على الأغلب ، يعيشون في حي واحد أو في أحياء متقاربة . وكان لي عم يمدّ ، في صباح أول يـوم مـن أيام العيد ، مائدة طويلة لابد أن يختلف إليها الزوار من أهل الحي ، علـى اختلاف طبقاتهم . وكان يدسّ في جيب الصدار الذي يلبسه كيساً خاصـاً

يدرجه درجاً . فكنت ، حين أراه يمد يده إليه ، أتطلع في وجوه الناس من فقراء الحي ، فأرى فيها فرحة غامرة لا أعرف اليوم مثلها في وجوه الفقراء !

* * *

واليوم أكاد لا أعرف من أهلي إلا أقرباء قليلين ، ممن يعيشون قريباً مني . أُسأل عن بعضهم فما أعرفهم . وألقى بعضهم فيبدأ يتقرب إليّ باسم أبيه وجدّه ، وباسم أخواله وأعمامه ، ثم ما أكاد أعرفه ، بعد الحديث الطويل ، إلا على الظن . بل لعلي لا أزور في العيد إلا الأقربين الأقربين من أهلي . فما أبعد البون بين حياتنا اليوم وحياتنا بالأمس ! يوم كان للعيد معنى كبير تتواصل فيه الأرحام ، وينعم الناس فيه باقتسام الخير . وتتجدد التقاليد التي تصلنا بأصولنا . وتشيع الألفة ، ويعمق الود في الناس .

فوا أسفا على ما أضعنا من صور الحياة !

١٩٩٨/٤/٨

حمامة

لما نلت شهادة الكفاءة ، منذ زمن بعيد ، وجدتني قادراً على الكسب . فحين أعلنت "مديرية المعارف" بحلب عن مسابقة لتعيين المعلمين في القرى ، قدّمت إليها أوراقي ، فاصطدمت بعقبة السن . لزمني أن أزيد في عمري سنة واحدة . لم أتراجع ، رفعت دعوى أمام المحكمة المدنية زعمت فيها أن أبي تأخر في تسجيل ولادتي ، يوم ولدت ، سنة كاملة ! كانت دعوى معروفة يسمونها "دعوى تصحيح السن" ، يلجأ إليها أصحاب الحاجات ! استحضر السائر بالدعوى شاهدين ممن يلتصقون بأبواب المحاكم لمثل هذه الساعات ، فأقسما اليمين وشهدا بأنهما يعرفاني معرفة جيدة ، وأن أبي تأخر في تسجيل ولادتي سنة أو تزيد قليلاً ، على نحو ما لقنهما السائر بالدعوى يومذاك ! فحكم الحاكم ، في غير احتفال ، ببطلان التسجيل القائم في سجلات الدولة ، و"صحح" تاريخ ولادتي على النحو القائم اليوم !

عرفت يومذاك ، وأنا بعد في هذه السن ، ما تعني شهادة الزور . ووقع في نفسي أن تكون دفاتر الدولة كلها مزورة !

خلاصة الأمر أني نجحت في دخول المسابقة ، وعينت في إحدى قرى المحافظة القريبة . كان يوم السفر مشهوداً . أخذت أمي تجمع لي

حاجات من سقط متاع الدار ، وتصرّ طعاماً هيأته بيديها . ثم استحضرنا دابة كانت لبعض رجال الحي فحمّلناها هذه الأحمال . وركب قريبي وردفني وراءه . فلما كدنا نتخطى بوابة الحي القديم ، لويت عنقي فرأيت أمي على باب الدار تمسح عينيها ، فما أدري كيف اغرورقت عيناي فجأة بالدمع ، فمسحتهما في صمت ، من وراء قريبي ، وأخذت أتطلع في وجوه معارفي من أهل الحي وهم يرونني على هذه الصورة الغريبة ، كأني أنوي أن أودع الدنيا !

لما صرنا في ظاهر المدينة ، وبدأنا نقطع الحقول المعشوشبة شملني إحساس حاد بالغربة ، فإني لم أكن غادرت مدينتي من قبل . تمنيت لو أن قريبي لوى عنق دابته وعاد بي إلى بيتنا ، فقد أفزعني الفراغ الذي بدأت أحسه يترامى من حولي ويجرني إليه . وأحسب أن قريبي أحس بما أنا فيه ، فالتفت يهوّن عليّ الأمر :

ـ هه ! ما شاء الله ! هكذا يفعل الرجال !

ثم بدأت معالم القرية التي عيِّنتُ فيها تتضح أمامنا شيئاً فشيئاً : فراغ كبير تتوسطه في رأس الهضبة قباب ترابية وخضرة مبعثرة في الأطراف المتباعدة .

استأجرت غرفة في ظاهر القرية ، قريباً من بعض الكروم ، وجدتها أبعد من حياة الناس في القرية . فكنت ، في الليل ، أسمع عواء ترتجف له مفاصلي . ولكن الصباح كان يكون مشرقاً في أوّله .

حملت في اليوم الثاني لوصولي مفتاح المدرسة ، فشككته في زناري ، لأنه كان كبيراً ، وفتحت أبواب المدرسة ، وكانت في طريق

العودة إلى حلب . فكنت أرفع نظري فانتبع الطريق إليها وأنا أحس حنينـا يكاد يحرق قلبي .

مضى الأسبوعان الأولان . فلما أحصيت أيامهما خيل إليّ أنـهما عامان ! ثم بدأت أسأل نفسي : وكيف تمضي هذه الأشهر كلـها ؟ فـذات صباح ، أفقت على طرقات خفيفة على الباب ، فنشـبتُ مـن الفـراش ، وأدرت المفتاح في القفل ثلاث دورات ، ومـددت رأسـي مـن البـاب ، فطالعني وجه سمح يبتسم ، أنست به . فتحت الباب ، فرأيت إلـى جـانب الرجل فتاة أراها لأول مرة ، سمراء سمرة لطيفة ، واسعة العينين ، أرخت على صدرها جديلتين سـوداوين طويلتين ،ولفّت نفسها في ثـوب داكـن أدارت من حوله زناراً شـدّ على خصرها، فارتفع صدرها علـى نحـو يوحي بقوة الصبا . ما أعرف كيف انفتحت في نفسي فجأة منافذ الإحسـاس بالوحشة التي كنت فيها ، فأحسست كأني ماء محبوس فُتحت له فُرْضة في الأرض ، فجرى ينساح في كل اتجاه . وتجلّت لي خضرة الكروم الزاهيـة المبلولة كأني أراها لأول مرة . انتزعتُ عيني انتزاعاً عن الوجه اللطيـف وغرزتهما في الفضاء لأخفي ما كان يزخر فيهما مـن مشـاعر مكبوتـة، أرهفتها حدّة الإحساس بالوحدة وفورةُ الحياة في هذه السن .

سمعت الرجل يسألني : **هل تريد حليباً هذا الصباح ؟.**

غصصت بالكلام ما أعرف كيف أبلغه حاجتي إليه . وازدحمـت على فمي كلمات متقطعـة كان من العسير عليّ أن أجمعـها فـي جملـة واحدة . و أحسب أني استطعت ، في آخر الأمر ، أن أبلغه حاجتي إلـى الحليب في كل صباح ! رأيته بعدها يشير إلى ابنته قائلاً :

ــ نحــن جيرانــك وتستطيع حمامــة ــ هكذا عرفــت اسمها ــ أن تحمل إليك الحليب كل يوم .

أصبحت بعدها أقضي اليوم كله في انتظار الزيــارة ، وأرهــف سمعي لطرقة الباب المرتقبة . أخذت أدير في نفسي حواراً أتصــور أن يدور بيني وبينها ذات يوم :

ــ لكِ إخوة يا حمامة ؟

ــ لي أختان أصغر مني .

ــ وما تفعلين بعد أن توزعي الحليب ؟

ــ أمضي إلى الكرم أعاون أبي .

ــ وما عمرك ؟

ــ لا أدري ، ثلاث عشرة أو أربع عشرة .

أتصور هنا أن تطرق برأسها ، ويصبغ الخجل خدها ، وتســرع فتحمل سطلها وتبتعد عن الباب !

ثم استحالت نفسي إلى أتون يزفر طول اليوم ، ويبرد فــي كــل صباح مرة ، ثم يعود يزفر أشد مما كان . وأخذت مشاعر غامضة لذيــذة تسيطر عليّ ، فألبث أسرح بنظري في الفضاء،وخيالي مزحــوم بصــورة حمامة . وقد أطفئ سراج الزيت ، كل ليلة ، وأغمض عيني ، وأبدأ أثــب وراءها في الكرم . وقد أختار أن أضع رأسها على كتفي وآخــذ أداعــب شعرها المضفور على صدرها ، وهي مغمضة العينين ، تلتهب بحــرارة اللقاء !

ثم بدأت تختلط في نفسي هذه الرؤى والأحاسيس ، وتمتلئ بحنين غامض لا أعرف وجهته ولا أتبين حدوده . وغابت عني صـــورة البلـد والأهل ، وانضمت صورة أمي ، على نحو غريب ، إلى صورة حمامة !

١٩٧٧/٩/١٢

الحكاية القديمة

كانت كوردة البستان ، بيضاء حمراء . وكانت خضراء العينين ، تقول لكل منا بعينيها شيئاً لا تقوله للآخرين . كنا نزدحم من حولها ونحن لا ندري . وكان لها في جبينها حبة صغيرة سوداء تكحل وجهها ، فكنت أينما التفت سطعتْ في عيني .

كنت لا أعرف للقاء الرجل بالمرأة إلا معنى واحداً . فلما رأيتها بجانبي على مقعد الدرس ، شملني إحساس بالخوف لا أعرف مصدره ، كأني أقف تحت جدار يوشك أن يقع . تمنيت ، في أول الأمر ، لو طرت إلى بيتنا في الشمال ، فأغلقتُ عليّ أبوابه ، وانصرفتُ عن هذا العالم الغريب .

التفت يوماً إليها فحيتني ، فما كدت أصدق نفسي . أخذت أسترق النظر من حولي فما رأيت أحداً ! ثم سألتني ، بعد أيام ، أن أحمل إليها كتاباً ، فقضيت الليل أنام ساعة وأفيق ساعة أنتظر الصباح . ثم طار النوم من عيني فنهضت وخططت لها رسالة قصيرة قرأتُها من بعد ، فلفحتني منها حرارة شديدة . أخذت ألطّفها ، وعزمت أن أدسها لها في الكتاب ،

— على نحو ما كنت قرأت في بعض القصص . لما طلع الصباح كنت سوّدت صفحات كثيرة دون أن أصل إلى الكلمات التي أريدها .

في الليلة التالية طويت الرسالة في الكتاب ، وأخذت أنتظر الصباح مرة أخرى . ما أدري أي طريق سلكت حتى وصلت الجامعة . رأيتها مشغولة بشيء تكتبه . فلما تحسستُ الكتاب في يدي ارتعدت فرائصي ، وما عدت أعرف كيف أتقدم منها ، وما أقول لها ! فانصرفت إلى مقعدي . وقضيت الساعة لم أسمع فيها حرفاً واحداً ، فقد كنت أسمع جريان الدم في عروقي !

كانت طوال الساعة مشغولة عني ، ظننتها تتشاغل عني بكل ما تراه . ثم لقيتها ونحن خارجون من القاعة ، وكانت تدير إليّ ظهرها . ووجدت نفسي فجأة في البحر إذ التفتتْ فرأتني . مددت إليها يدي بالكتاب ، فتناولتْه كأنها ترفع شيئاً سقط منها في الطريق ! وابتسمتْ . ولعلها قالت كلمة لم أسمعها ، فما عدت أعي شيئاً بعدها !

قضيت ليلة غفوت فيها لحظات قليلة ، وبدأ الندم يساورني . وتخيلت ما يمكن أن تقوله فاشتد فزعي . ثم لما دخلت قاعة الدرس كنت كأني أنهض من مرض طويل . لم أجرؤ على التلفت إليها . وخطفت إليها بصري مرة أو مرتين فرأيتها كما أراها في كل يوم .

انقضت أيام بعدها ، وجاءت ترد إليّ الكتاب . لم أنظر في عينيها . كانت مسرعة فدخلتْ القاعة ، ودخلتُ وراءها ، والكتاب في يدي ، أود لو انغلقت علي الأبواب ، وابتعد عني الناس جميعاً ، لأقلّبه ورقة ورقة .

وأشاروا إليها ، فابتدأت تقرأ نصاً . كان الصباح مثيراً ، والكتاب أمامي أتحسسه ، فيسري في أصابعي خدر غامض . وكان في صوتها تكسر خفيف كأنها بدأت تفيق لتوها من النوم . وكانت ، وهي تقرأ ، تحضر وتغيب ،كأنها طفلة تتلاعب وتمد رأسها وتخفيه من وراء الأشجار .

ماصدقتُ أن أعود إلى البيت ، فبدأتُ على الفور أقلّب الكتاب . فجأة جمد الدم في عروقي : وجدت رسالتي في موضعها من الكتاب ، مطوية كما دسستها ، لم تمسها على الإطلاق . فما أعرف حينذاك : هل بقيت الأرض تدور ؟

ثم قالوا : إنها تزوجت . وانقطعت عن الجامعة فما تحضر إلا في ساعات الامتحان .

ومضى الزمان !

بعد سنين طويلة دخلت دكاناً من دكاكين الألعاب في الصالحية . كانت مكتظة بالناس . فسمعت سيدة تطلب ألعوبة بصوت متكسر لا أستطيع أن أنساه ، كأن صاحبته بدأت تفيق لتوها من النوم . تسمرت عيناي فيها زمناً نسيتُ فيه ولدي الصغير ، وكان معي ، فأخذ يهز يدي وهو يتطلع في وجهي . كانت تلبس ثوباً داكناً يضيق عنها ، ويتحدر جسدها من فرط البدانة . وعجزت رجلاها عن حملها فاعوجتا . وتهدل وجهها ، وانساحت فيه ألوان صارخة لا معنى لها . وجمدت عيناها وانطفأ اخضرارهما . فلو أنها سكتت ماعرفتها لولاحبة سوداء في الجبين كانت ، في يوم من الأيام ، تسطع في عيني كشعلة النور !

١٩٧٧/١٠/٢٤

مواقف صغيرة لا تنسى

في حياة كل إنسان مواقف صغيرة لا تغادر الذاكرة ، وقعت له على وجه الحقيقة لا على وجه التخيّل . فذلك لأنها تخرج عن المألوف ، وإن كانت خيوطها مشتقة من نسيج الحياة نفسها . أو لأنها تحمل من المعاني الإنسانية قدراً تهتز له النفس . فإني لا أنسى ، مثلاً ، يوماً طلب فيه أبي مني ، وكنت في حوالي العاشرة من عمري ، أن أمسك بيده وأعلمه كيف يخطّ اسمه على الورق ، فقد كان ، رحمه الله ، أميّاً لا يقرأ ولا يكتب . وكان ، إلى هذا ، من المنتخبين الثانويين في الحي ، فكان يحتاج أحياناً إلى أن يخط اسمه على نحو يقرّبه من التوقيع ، بدل أن يبصم أمام أهل الحي . أذكر يومها أني لويت أصابعي الصغيرة ، ولويت بينها إبهامه وسبابته ، وأخذت أخط الحروف الهجائية جيئة وذهاباً حتى استقام الاسم ، عدداً من المرات . ثم رفعتُ إليه وجهي ونظرتُ في عينيه ، فرأيت فيهما معنى لا أستطيع أن أنساه !

ومثل هذا يوم وقفت أؤنب ولدي الصغير في ذنب ارتكبه ، فأسرفت في التأنيب حتى طفرت الدموع من عينيه . ثم اكتشفتُ أني أنا مرتكب الذنب ، وأن الولد أبى أن يواجهني به . فأتيته أعتذر إليه ، فضم

رأسي إلى صدره وأخذ يقبلني وهو يبكي ، فإني إلى اليوم أذكر هذا الموقف فيخفق له قلبي كأني ما غادرته منذ سنين طويلة !

وأذكر أني ، وأنا في أول المرحلة الابتدائية ، وكانت جارة لنا صبية تدخل ، وهي في مباذلها ، (ثياب البيت المكشوفة) على أمي ، لا تحتشم منها . وتراني صغيراً فلا تبالي أن أراها على هذه الحال . وكانت لها غمازتان ، حين تضحك تشرقان في وجهها . فأظل أنظر فيهما وأتملاهما فلا أشبع من النظر فيهما . فيوماً اقتربت منها ، وهي تحدث أمي حديثاً تضحك له وتميل بوجهها . فأخذت أمسح على الغمازتين ، وهي مشغولة عني في أول الأمر . ثم انتبهتْ لي فأخذتني في يديها ومالت على وجهي تقبّلني في حرارة التشوق للولد . فأنا إلى اليوم كلما رأيت وجهاً فيه غمازتان قفزت إلى خاطري صورة جارتنا الصبية ، وأنا أمسح على وجهها ، في مثل تلك الحال !

ومن المواقف الصغيرة التي لا أنساها في هذه المرحلة ، أني أصبت بحمى شديدة ، فرأيت أمي تميل عليّ تتحسس جبيني في ساعات الليل ، لا تفتر . ثم رأيتها تطلب مني أن أنهض ، وكان مضى أكثر الليل ، وتشدني فتغسل لي وجهي بماء بارد . وكنت لا أقوى على الوقوف . فجلست على حافة العتبة ، في دارنا القديمة ، وأنا أتمتم بما لا أعي من الكلام . كان القمر يضيء أرض الدار ، فرأيت أمي كما يرى الحالم ، ترفع يديها إلى السماء وتدعو باحتراق أحسسته يلفح وجهي . ومرت دقائق ، فكأن يداً رفعت عني وغْرة الحمى ، لا أعرف كيف ! فانتبهتُ وتنفستُ نفس المستريح . ورأتني فضمتني إليها وحملتني إلى

الفراش ، وهي تدعو دعوات مختنقة لا تزال ، إلى اليوم ، تتردد في سمعي ! والغريب أني ، في الليالي المقمرة ، تعود إليّ هذه الذكرى كأنها ما تزال قائمة بين السمع والبصر .

*

وكان في رفاقي ، في المرحلة الإعدادية : صبي كنت أوثره بالود . كثير الصمت . كنت أعرف أن أباه إسكافي شيخ يطيل قراءة القرآن ، وأسمعه أحياناً يردد بعض آياته وهو يعمل . وكانت في دكانه زاوية لصبغ الأحذية يعمل فيها أحد العمال . فيوماً خرجتُ مع صديقي ، ابنه ، من المدرسة مبكرَين . فأخذنا نسير لا نريد مكاناً بعينه . ورأينا أنفسنا ، فجأة ، نقترب من دكان أبيه . نظرتُ فرأيت حذائي مغبراً يحتاج إلى صبغ ، فخطر لي أن أغتنم الفرصة ، فدخلت وجلست فوراً في الزاوية المخصصة لصباغة الأحذية ، وأخذت أتطلع أريد العامل فيها ، على عادتي في كل مرة . نظر الأب في وجهي ، فابتسم وقال : العامل غائب . والتفت إلى ابنه ، صديقي ، وقال له ، في غير مبالاة : اصبغ لزميلك !

أحسست أن الدنيا غامت في وجهي ، أدرت وجهي لا أريد أن أنظر في عيني صديقي ، وقد كنت ، قبل دقائق ، قبل أن ندخل الدكان ، أضع يدي في يده ، على عادتنا في الطريق . ما عرفتُ كيف قفزتُ عن الكرسي الذي جلستُ عليه ، وأنا أتمتم ، وقد اصطبغ وجهي بحمرة الدم :

— تذكرت أني علي موعد هام ، لابد من الذهاب إليـــه ، ويمكن أن أعود بعد إنجازه !

فلما أوشكتُ أن أخرج من البـــاب ، وجدت صديقي واقفــاً إلـــى جانبه ، وهو يبتسم لي في مودة صافية ، ويقول في براءة أحسستها تتغـرز في قلبي كالسكين :

— أجّل موعدك الآن ، فحذاؤك وسخ ! وما علينا ؟ ألسـنا صديقين ؟

وتخرّج معي في المعهد العالي للمعلمين (كلية التربية اليــوم) ، في أوائل الخمسينيات ، زميل من غير كلية الآداب . ولكنا كنا نجتمع معــاً في دروس التربية . فلما تخرجنا جرى تعيينه في إحدى الثانويات القديمة ، كان أبوه ، لغرابة الاتفاق ، يعمل آذناً فيها ! لقيتُه في الطريق ، فرأيتـــه لا يعرف كيف يجمع أعضاءه بعضها إلى بعض . يبتسم وفي عينيه انكســـار يحاول أن يخفيه ..!

كان الخبر وما يتصل بمعانيه وذيوله عمّ زملاءنا جميعاً . فكنــت أقول لنفسي : وما ذنبه؟ وما الذي يعيبه وأبوه يكسب لقمته بشرف العمل ؟ ثم أقول : ولكن الموقف صعب . فما يكون منه حين يشيع الأمر في طلاب المدرسة ؟ وكيف تراه يكون وهو يرى أباه يقف بالباب ، أو يســعى بيــن أيدي المدرّسين من زملائـــه ؟ وما الذي انتهى بهذا الأب الـــذي وصــل بولده ، وهو على ما هو عليه ، إلى الجامعة وتخرّج فيها ، إلى أن يقـــف هذا الموقف من ولده ، ويرى موضعه منه على هذه الصورة الغريبة ؟

*

هذان الموقفان الأخيران اللذان وقفتهما في حياتي ، لا أنســـاهما أبداً وقد كان لهما ، على صغرهما ، أثر كبـير فـي كرهـي الطبقيـة والمنتسبين إلى معانيها وقيمها . وأقول أحياناً : ولكن كيف يكسر الإنســان صخرة الواقع ؟ وكيف يستعلي هو نفسه عليه وقد نشأ في أحضانه ؟

٢٦/٣/٢٠٠٠ و ١٦/٤/٢٠٠٠

إحدى الأمهات

من يستطيع أن يشتق من مجموع الأمهات أمّاً مجردة يحدّث عنها ويسترجع صورتها ؟ لو حاول أن يفعل وجد نفسه يحدث عن أمه وحدها . ففي كل أم لا يرى إلا أمـــه ، ولا يحـدِّث إلا عنــها ، ولا يســترجع إلا صورتها . فالأم ، كل أم ، تعبّر عن عاطفتها بأسلوبها الخاص . فهناك من صور الحب ، أو صور الحنان ، أو صور الإيثـــار ، عـــدد الأمـــهات . حاولت مرة أن أسترجع صورة الأم في تاريخنا ، فوجدتُني أُسترجع فيـــه على انفراد ، صورة كل أم . فأم عبد الله بن الزبير (ذات النطاقين) مثلاً عبرت عن حبها لابنها على نحو يصعب أن ترضى به كـــل أم : دفعــتْ بابنها إلى القتل ، وفاءً بالعهد الذي عاهد أصحابه عليه . وهوّنـــت عليــه الموت ، وحضتّه على الاستهانة بالتمثيل بجثته بعد أن يمـــوت . فـــالحب عندها يتمثل في قيمة عليا لا تقبل التنازل عنها . ولو تنازلت عنها أسقطت في عينيها صورة هذا الحب .

كانت أمي كبرى ثلاث بنات لجدي الشيخ المتوحد ، إمـــام أحــد الجوامع الصغيرة . قضت بعد زواجها أربعة عشر عاماً لم تـــرزق فيــها الولد حتى أدركها اليأس . فكانت ، حين تكون وحدها، تصعد إلى ســـقيفة

صغيرة ، فتبكي فيها . فإذا جاء أبي وجدها فيها ، فسماها (سقيفة الحزن) ! ثم رُزقتْ ولدها الأول فمات بعد أسبوع من ولادته . كانت تحدثنا عن هـذه الأيام فتمتلئ عيناها بالدمع . وكانت تجيد الحديث ، إذا مست قلبها إحـــدى الصور التي تبرع في رسمها فاضت عيناها أيضاً ، حتى إني رأيتها تعجز عن تذوق الأشياء السارة إلا إذا احتواها ظرف حزين !

كنت أحس ، في هذه السن المبكرة ، على نحو أعجز عن تفسيره الآن ، أن صور الحب والحنان والإيثار التي تطالعنا بـــها موشـــاة دائمـــاً بالحزن ، فلهذا أحاول أن استعيد بعضها الآن فلا أقوى على تملّيها . كنــت أسمعها تغني أحياناً لنفسها ، فأسمع صوتاً حلواً يندب الأيـــــام ، ويتعــزى بالمصير المحتوم !

كانت إذا أرادت أن تخرج من البيت وتخالط خضرة الطبيعـــــة ، جرّتْني معها إلى الجبانة القريبة ، فاختارت زاوية نبـــت فيـــها الحشـــيش الأخضر ، بين القبور ، فأجلستني قبالتها ، وجلست تطعمني من زاد حملته معها ، وهي تحدثني عن الذين ماتوا من أهلها ، بعد عذاب طويل عانوا فيه من المرض أو الغربة أو الفقر . فتمتلئ نفسي بالحسرات ، تزيدها مشـــاهد القبور من حولي قوة . وتأخذ صور العذاب تشخص في خيالي وتكتســـب ألواناً جديدة ، صرتُ ، مع الأيام ، أجد النشوة في إضافتها إليها !

لم يكن يخفف عني هذه المعاناة التي تعـــبر أمـــي ، بصورهـــا الحزينة ، عن حبها العميق لي ، إلا أُلفتي اللعب مع بنت الجيران . كـــانت ــ كما سبق أن قلت ــ في مثل سني . وكنت أرى في عينيها اللامعتيـــن

معنى يضحك ، فكنت أجده غريباً ، إذ كان الحزن هو المعنى الذي أذوقــه في الأشياء ! قرّبت عينيها مرة من عينيّ ونظرت فيهما وقالت :

— ما فعلتَ حتى ضربتك أمك ؟

— أمي لم تضربني .

— ولكنك كنت تبكي

ردت وهي تمعن النظر في عيني !

— لم أكن أبكي . من قال لك إني بكيت ؟

— عيناك،فيهما أثر البكاء !

وسألتني مرة أن أفتح لها كفي لتقرأها كما تفعل أمها في جلســات سمرها مع الجيران . فتناولتْها وألصقتْ بها خدها وقالت ، وهي تضحك :

— حرارتك مرتفعة أولاً ، احزر السبب ، لأنك زعلان !

كانت تضحك دائماً ، وكنت أعجب لها . أبدأ أحدثها أحياناً عــن ظلام الليل وعذاب الأموات في القبور ، فتغرق في الضحك وتقول :

— ولكن أمي قالت لي مرة : إن الأمـــوات فـــي القبــور يطلّون على بساتين وأشجار وزهور كثيرة !

٢٠٠٠/٣/٢٢

(٣)
في قبضة الحياة

في قبضة الحياة

دخلت دار مجمع اللغة العربية يوم كانت تقوم في المدرسة العادلية المواجهة لدار الكتب الظاهرية ، بعد أن اجتزتُ على قدمي ، في ضحوة النهار وصخبه ، سوق الحميدية ، وامتلأ سمعي بأصوات الناس وجلبة الدنيا وضجة الأخذ والرد والعرض والطلب . فما إن تجاوزت باب الدار الواسع حتى شملني إحساس بالسكينة لعل فيه أثراً من راحة العودة إلى الماضي .

تمنيت حينذاك أن يكون بين يديّ وسادة أسند إليها رأسي ، وأن تظل تكرّ في سمعي مياه البركة التي دار من حولها يوماً ابن خلدون وابن خلّكان ومن لا أحصي من الرجال . أخذت أتطلع في شجيرات الكباد المتفرقة في ساحة الدار ، وأتتبع بعيني طيوراً صغيرة تطير عنها وتحطّ فيها وهي تزقزق مشغولةً بنفسها ، كأن الدنيا لم تتغير !

رأيت باب الإيوان القبلي مفتوحاً ، فدلفتُ إليه . تطلعتُ ، على عجل ، إلى الشبابيك المخرّمة المفتوحة على ساحة الدار ، ومن ورائها رؤوس منكبة على مكاتبها . وطيور الدار تفترق وتجتمع وتروح وتجيء ، يكاد حفيف أجنحتها يختلط بحفيف الأوراق . عالم نظيف ما أشدّ ما يبدو

منقطعاً عن العالم الذي خلّفته منذ دقائق قليلة . ورأيت في الإيوان شابين انكبا على إحدى المخطوطات ، يعيد أحدهما قراءتها بصوت منخفض ، ويتتبع الثاني ما استملاه منها . يشغلهما الجدل من حول كلمة يختلفان في قراءتها أو تفسيرها ، فيمعنان النظر فيها ، ويتتبعان مادتها في بعض المعجمات الكبيرة . ويأخذان يقلّبان معانيها وهما ينظران في صورتها المخطوطة ، يحاولان أن يستهديا بها في اختيار الوجه الملائم لقراءتها . فلما أحسا أني أطيل التطلع إليهما نظرا فيّ نظرة المستطلع . فحولت بصري عنهما ، وتشاغلت بالحديث إلى أحد زملائي ، وكان أسرع إليّ حين رآني أدخل من باب الدار . ولكني كنت أشاغل نفسي ، فإن يداً كانت تعبث في داخلي ، وتزيح عنها ركاماً تجمّع فيها هذه السنين الطويلة ، منذ تحولتُ عن طاولة التلمذة .

كنت يومها أفيق في الصباح الباكر ، فأملأ محفظتي بالأوراق والجزازات ، وأرتدي قميصاً أزرق ما أكاد أفرغ للتفكير في تبديله ، ثم أجري لألحق بأحد الباصات المكتظة . فإذا وصلت ميدان العتبة الخضراء استقللت باصاً آخر إلى دار الكتب المصرية في باب الخَلْق . وربما أغراني الصباح فقطعت هذه المسافة على قدميّ وأنا أتطلع في المقاهي والحوانيت على طرفي شارع محمد علي ، وأنظر ، بفضول ، إلى آلات الموسيقا النحاسية القديمة المعلقة على جدران الحوانيت . فإذا صرتُ قريباً من دار الكتب عرّجتُ على إحدى البقاليات فشربت زجاجة من الحليب البارد ، ودخلت الدار ، فقصدت غرفة المخطوطات ، فأخرجت أوراقي ، وسجلت أسماء المخطوطات التي أريد أن أنظر فيها ذلك اليوم .

كان العمل يستجرني فما أكاد أصحو ، في أكثر الأيام ، إلا على جملة الصديق مدير المخطوطات ، وهو يبسط يديه على الأوراق :

– هي ايه يا سيدنا الأستاذ .. مطاردة !

فأضحك ، وأنهض وأنا أستوصيه خيراً بما تبقى من مخطوطات اليوم . ثم أعود بعد الغداء إليها ، فما أغادر الدار إلا في أول الليل ! فإذا لمع أمامي ، في إحدى الصفحات ، بيت لهذا الشاعر لا أعرفه من قبل ، قاربتُ أن أطير . وأخذتً ـ يا لسعادة المساكين ـ أدور في حنايا نفسي أوقظ كل خلية فيها ، كأني ما أصدق عيني . واهتز القلم في يدي كأنه يوشك أن يصيح .

سعادة ما أحسبني أحس مثلها اليوم لو بُعث الشاعر حياً من قبره ، وجاءني بكفنه وديوانه معاً ! روعة الخلق التي كنت أحسها وأنا أجمع أعضاءه المبعثرة بعضها إلى بعض ، وأحاول أن أعيد تكوينه وأسويه ! وسمو القصد وأنا أحس أني أمسك بدفة الحياة وأديرها في الوجهة التي أريد ، وأخرج من قبضتها وأكسر جبروتها . فمن يستطيع أن يحدّد لمثل هذه المعاني أثمانها ؟

*

هل خطر لهذين الشابين اللذين كنت أتطلع فيهما ، في دار المجمع في العادلية ، وهما يسبحان في هذا العالم النظيف الذي خرجت منه ، أني كنت أسترجع فيهما شاباً كان يقعد مثلهما في غرفة المخطوطات في باب الخلق ، ويدير ، مثلهما ، دفة الحياة في الوجهة التي يريدها ،

يحسب أن الدنيا أصبحت تحت قدميه ، وأنه لو أراد طـــار بجنـــاحين ، إذ يرى أنه أضاف جديداً إلى ما يعرفه الناس من حوله !

ولكنه اليوم ــ وا حسرتاه ــ يختلج في قبضة الحياة !

١٩٧٧/٩/٢٦

الكتاب

كان في جملة ما انصرفتُ إليه في القاهرة ، تكوين مكتبة تضم الأمهات ، وأشتاتاً من المعارف الإنسانية . كنت أبدو في جوع شديد إلى الكتاب النادر ، أركض وراءه في المكتبات الكبيرة ، فإذا أخطأتُه قصدت المكتبات الصغيرة ، في منعطفات الأزهر وسيدنا الحسين وباب الخلق . أغوص في طبقات مغبّرة من الأوراق ، أنفض عنها الغبار ، وأقلّبها ، وأقرأ أطرافاً من صفحاتها الأولي والأخيرة . وقد تستهويني فأنسى ما حولي . ولكني أفوز آخر الأمر بربطة من الكتب ما أصدّق أن أخرج بها وأصل إلى البيت ، لأعود فأفك رباطها وأقعد أقلّبها من جديد ، كأني انتهيت معها إلى أغلى كنوز الأرض . سعادة هي أشبه بسعادة الطفل الصافية التي تملأ من حوله كل شيء .

كنت ربما وجدتُ في بعض المكتبات سلّماً ، فما أنتظر أن أستأذن أصحابها . أركزه بيدي على جدران المكتبة وأتسلقه لأصل إلى رفوفها العليا ، وآخذ أقلّب كتبها وأنا في مكاني الشاهق . فإذا اكتشفتُ كتاباً ذا طبعة ثمينة أو نادرة هزتني النشوة ، فاضطرب السلّم من تحتي ، ونسيتُ أناساً ينتظرونني ، وكنت أصحبهم ، فما أذكرهم إلا وهم يعتذرون من انصرافهم بعد أن أعوزهم الصبر .

وكان في باب الخلق رجل يقال له (حجاج) . كان يشغل غرفة في الجامع الذي يتصدر الميدان . ويهوى أن يظهر في عيـن من كان مثلي ، في صورة من لا يقدّر بضاعته قدرهـا ، يغرينـا بمظهره،أو يوحي إلينا بغفلته ! فكان يترك كتبه هملاً مكومة أكواماً على الأرض ، تجلّلها طبقة كثيفة من الغبار . فما إن ننتقي الكتـب وننفض عنه الغبار ، ونستدير إليه نسأله عن ثمنه ، وهـو علـى كرسيه في مدخل الباب ، حتى يطير الوهم من رؤوسـنا : فالرجل يعرف قدر كل كتاب نادر ، ويعرف فوقها ، بخبرته الطويلة ، مـا يغلي في نفوسنامن شوق إلىامتلاكه ،ويضع هذا كله في الميزان !

كان إذا سأله أحدنا عن الكتاب وهو يظهر الاستهانة بـه ، يقصـد أن يخفي ما في نفسـه حتي لا يطمـع الرجل فيه ، ابتسم (حجاج) ابتسامة من قضى عمره يبلو هذه المواقـف ، ويشـهد المشترين وهم يقومون بهذه التمثيليات الساذجة ، فيجعلهم يحسّـون أن الرجل يعرف من حقائق أنفسهم ما يعرف الرجل الكبير الناضج من حقائق طفله الغر !

وأصعب ما كنت ألاقيه ، يوم أفيق في الأيام الشـحيحة ، فأنذر من في البيت بأن يشـدوا الأحزمة على البطون ، فنحن فـي الأيام الأخيرة من الشهر ، ويحسن أن يتنازلوا عن شهوات أنفسـهم كلها ، وان يوطنوا النفس على قبول ما هم فيه . ثـم أعـود بعـد منتصف النهار ، وأنا أحمل في يدي صـرة مـن هـذه الكتـب ! فحينذاك كانت تقوم قيامة الأم :

— **ماذا ؟ الأولاد في أمس الحاجة إلى قمصان تستر أجسادهم وأنت تأتينا بهذا الغبار والعفار كل يوم . ثم لقد استيقظتَ اليوم وأنت تنفخ في بوق التقشف ، ثم تأتينا بعد الظهر بأكوام من الورق الأصفر والجلود المهترئة !**

فأجيب ، كأني أرد عن شرف الكتاب :

— **ورق أصفر وجلود مهترئة ! لو كنت تعرفين ما في هذه الأوراق !**

فترد في برود المغتاظ :

— **يا سلام ! فتح الفتوح !**

تقول هذا الكلام وهي تتغّمه أحياناً من شدة الغيظ .

ثم إذا اجتزنا هذه الأيام عاودتُ سيرتي ، فبدأتُ رأس الشهر من سور الأزبكية ، أفلّي الرفوف المكتظة بالكتب العتيقة ، وأقف لها في شمس الظهيرة أحياناً . ثم أعود إلى البيت أشعث أغبر وفي يدي صرة جديدة من الكتب .

ثم كانت تبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة . فقد ساقنا قدرنا يوماً إلى ورشة تجليد في حارة بعيدة ومخفية من حول الأزهر ، يقال لها (الجودرية) ، كان صاحبها معروفاً لكبار أصحاب المكتبات الخاصة في القاهرة . وكان يقال له (سعد) . كنت أراه وهو يقلّب في يده الكتاب العتيق فيمسح عليه كما يمسح الرجل على رأس ولده ، ويأخذ في تذهيب كعبه ، ويطبع عليه

اسمه ، ويخططه في نشوة من يسوّي طُرفة من طُرَف الفن . وانعقدت بيننا وبينه أواصر الود ، فكنا نأتيه بصرر الكتب القديمة ونستلمها ، بعد أسابيع ، في جلودها الزاهية وحوافيها المقصوصة وتذهيباتها الجميلة . كان يحتال في ترميم الكتاب المخروم وتسوية الأوراق الممزقة ، حتى كنتَ تفتح الكتاب على مصراعيه بين يديك فما تراه انفكّ عن جلدته أو تتحنح عن خيطه .

ولكن عاملاً جديداً للصرف أضيف إلى الكتاب . كنت أقول لنفسي أشتريه اليوم وأجلده غداً . ولكني ما ألبث أن أتصوره في الجلدة الزاهية والتذهيبة الحلوة وقد انشدّ وقُصت أطرافه ، فيركبني نزوع لا أعرف كيف أصده ، فما أشعر إلا والكتاب في يد (سعد) !

اليوم أرفع عيني أتأمل الصفوف المنتظمة من الكتب التي أبقاها لي الزمان ، وأتتبع خطوطها وتذهيبها ، وأقرأ أسماءها ، فتقفز في النفس ذكريات ــ ما أعذبها ! ــ من حول كل كتاب . وأعود أرحل معه من باب الخلق . من عتبة (حجاج) ، أو من حول الأزهر ، أو من سور الأزبكية ، إلى الجودرية ويد (سعد) . وتطوف من حول هذه المسيرة مواقف ومشاهد ومشاعر أحسها ، أحياناً ، جزءاً من جمال الشباب وحرارة نزوعه ، وقوة إحساسه بالحياة .

* * *

زرت القاهرة بعد زمن ، فنزلت يوماً من الفندق الفـاخر ، ومشيت على قدمي إلى سور الأزبكية ، وتعديتَه إلى باب الخَلــق ، فوقفت أمام الجامع ، وسألت عن (حجاج) فقالوا : مــات،ومــات بعده سعد في الجودرية . فلويت وجهي ، وعدت أهيم في الشـوارع التي عرفتْني وأنا أطفر فيها ، لا تكاد الدنيا تسعني ، وفـــي يـدي صرة مغبرّة من الكتب ، كانت يومذاك تضيق عنها كنوز الأرض !

١٩٧٧/٩/١٩

شهقة الروح

خرجتُ اليوم من قاعة المحاضرات متعباً مكدوداً ، فقــد قضيت ساعة أغري طلابي بقراءة بعض الكتب ، فــأراهم يلفــون ويدورون ، يريدون أن أقصرهم على كتاب واحد . ولو اسـتطاعوا لاكتفوا منه ببعــض الصفحات أقول لنفسي : لعلهم علـــى حق ! فهم يرون هبوط قيمة المعرفة في حياتهم ، وكساد ســوقها . وذكرت الماضي ، فوا أسفا على مال قليل أضعناه في تحويش كتب كنا نراها أغلى من نور البصر . كنا نشتري الكتاب النادر وليــس معنا عشاء ليلتنا . فلما كبرنا أصبحنا ننظر إليه كما ينظر الأب إلى الولد العاق : لا هو ينتفع بنفسه ولا ينتفع به أبوه . وقد ضاق بـــها أهل البيت وتمنوا الخلاص منها بعد أن رأوها تزحف على الجدران وتسد المنافذ . وربما قلبت الأم وسادتها في الصباح فرأت تحتـــها كتاباً سميكاً ، فتأخذ تثني رقبتها وتحسسها وهي تقول :

ـ لن تكف عن هذه العادات حتى تورثني الصـداع الدائم أنام وأنا أشكو من انتفاخ الوسادة وقسوتها ، ما يخطر لي أن تكون حشَوْتَها ببعض كتبك . ما كفـــاك

البيت كله حتى جعلتها تزحف إلى الوسادة والفراش . ثم ما الذي جنيناه منها غير زيادة الـــهم ومقاســمة لقمـــة العيش ؟

وكانت أحياناً ، كما قلت ، تراني وفي يدي صرة من هـذه الكتب ، فتدع ما في يدها من شؤون البيت ، وتقبل علـــيّ ممتقعـــة اللون تقول :

ـــ هل تستطيع أن تقول لي : كم بقي مـــن أيـــام الشهر ؟

أقول وأنا مطرق ، أحاول أن أخفف من حدة الموقف :

ـــ أيام قليلة لا تحملي همها !

فتقول ، وهي تنفض يدها :

ـــ فمن يحمل همها إذن ؟

أردّ ، أريد أن أصرفها عن الجدل :

ـــ لا تضيقيها علينا ، دعي شيئاً لله !

فتدير ظهرها إليّ علامة يأسها ، وتقول :

ـــ ما أظن الله يرضى أن تنسى أنك مسؤول عـــن قِطَع اللحم التي خلفتَهَا !

ثم تدور الأيام ، وتكثر الكتب حتى يضيق بها فضاء البيت ، فأبدأ أنفي بعضها إلى السقيفة . ثم تفيض الســـقيفة وتبـــدأ الكتـــب تزحف إلى غرفة النوم ، فما أجد بداً من التفكير في شراء خزانـــة ألصقها بالسرير . هنا تنهار السدود وينداح الطوفان :

ـــ ماذا ؟ خزانة جديدة للكتب ! وفي غرفة النوم !

لا بد أن أصطنع الحكمة هذه المرة :

ـــ هل تجدين أطيب من صحبة هؤلاء الحكماء العظام ، يطلّون عليكِ من سُدّة الأبدية : المتنبي والجاحظ وابن كثير والطبري وابن حزم و ...

تصيح وهي ترفع يدها إلى رأسها :

ـــ كفاية ! ما يكفي أني أصحبهم طول النهار حتى أصحبهم في الليل ! صحبتهم عمري إلى اليوم ، فما وجدت في صحبتهم إلا الضيق وخيبة الأمل ! انظر : هذه جارتنا فلانة لم يصحب زوجها الأمي هؤلاء العظماء بأسمائهم واحداً واحداً ، فانظر : هل تستطيع أن ترفع يدها من ثقل الأساور والخواتم ؟ وانظر جارتنا الأخرى التي لم يسمع زوجها بواحد منهم ، ولا حمل الدفاتر والأوراق والكتب التي تحملها كل صباح ، وتقف بها على الرصيف تنتظر سيارات النقل . انظر: هل تسع الطريق سيارته التي تقف أمام البيت ؟ وقريبتنا فلانة التي فتحت عينيها جيداً قبل الزواج . زوجها مدير مؤسسة ... يصحبها في الأسبوع مرتين إلى أفخم المطاعم ، وفي بيته من الثريات والمرايا والسجاد قدر ما في بيتك من الأوراق المكدسة . وفلان الذي أصبح يملك المصانع والدور والأراضي ، وتقف على

بابه ثلاث أو أربع سيارات بسائقيها ، وتعج مضافته بالدلالين ورجال الأعمال وطالبي الحظوة : لو عرضتَ عليه قوافل عظمائك ، بلحمهم ودمهم ، ما اشتراهم جميعاً بفلس !

كنت أسمع هذا الكلام وقد عقدت المفاجأة لساني ، فإني قلما أرى الأم تفيض نفسها بكل هذا القهر . وتداعت إلى نفسي صورتها وهي ترفع يديها إلى السماء ، ذات مساء ، وتنظر في خزائن الكتب ، وتدعو الله أن يرسل إليها بعض من يحملها عنها ، من لصوص النهار أو سراق الليل . ثم تستدرك : ولكن من يرضى أن يحمل عنا هذه الهموم ؟

*

خلاصة الأمر أني انتهيت إلى التفكير في التخلص من بعض هذه " الهموم" . فكنت آخذ الكتاب فأقلّبه ، فتقفز إلي من صفحاته ذكريات هي كل نسيج العمر ، فأركنه وأتناول غيره ، فما أقوى على "هجره" ، حتى أقبل اليوم الذي لم يعد فيه أمامي إلا الرضا بالقضاء . فقد نوينا أن نبيع البيت وننتقل إلى بيت آخر لا يسع هذه الكتب كلها .

ساعة لا أستطيع أن أنساها : أقبل الحمالون فحملوا صناديق الكتب ، فقذفوا بها في عنابر السيارات ، ثم أداروا

محركاتها ، فاهتزت الصناديق ، وسقط منها ، وهي تبتعد ، كتـــاب واحد ، تلوّى على الأرض . أسرعتُ إليه أريد أن أتناوله ، ولكـــن سيارة أخرى سبقتني إليه ، فداسته أمامي . فمـــا أدري مـــن أيـــن سمعتُ شهقة هزت كياني كله !

*

ما أعرف إلى اليوم : هل خانني سمعي أم شهقتْ فيه حقاً تلك الروح ؟

١٩٩١/٨/٢٢

الرد على الرسالة

(١)

تلقيت في البريد ، رسالة موقعة بحرفين (د.ق) من حلب . هذا نصها بحروفه ، بعد حذف التحيات وكلمات المجاملة ، وترتيب بعض الفقرات ، وتصحيح بعض أخطاء اللغة ، وتقويم بعض الجمل :

" قرأت ، في مقالتك التي نشرتْ بعنوان "شهقة الروح" ، أن زوجتك لا تطيق أن ترى الكتب ، وتدعو الله أن يرسل إليها بعض من يحمل عنها " أكوام الهموم " كما تقول . فاسمح لي أن أعرض عليك رأيي في هذه المشكلة :

أمامك يا أستاذ ثلاثة حلول :

١- **أن تبيع الكتب وتتخلى عن الكار ، وتفتح مكتباً عقارياً . أو تعمل في البيع والشراء ، وتؤسس مضافة تستقبل فيها السماسرة الظاهرين والمستترين ، فتصبح ، بين عشية وضحاها ، من أصحاب الملايين . ويظهر اسمك على شاشة التلفزيون . وتشتري لزوجتك كل الأشياء التي نفسها فيها .**

٢- والحل الثاني : أن "تدبر رأسك" معها ، وتصبر على مـا تسمع منها ، وتحاول أن توفق بينها وبين الكتـب فـي البيت، بالإقناع حيناً ، وبالحيلة حيناً ، إلى آخر العمـر ! وفي هذا الحل من القهر الشديد والأخذ والرد ما لابـد أن تحتمله ، من غير أن تشتكي في الصحـف ، وتفضـح نفسك على رؤوس الأشهاد !

٣- والحل الثالث ، أن تضع الفاس في الراس ، فتلجأ إلـى تأثيث بيت آخر ، تنقـل إليه كتبك ، وتفتش لنفسك عـن ربة بيت جديدة ، تشترط عليها ، من أول الطريـق ، أن تقبل بك على هذه الحال ، مع أحمـال الكتب . فإذا رأيتَ أن هذا هو الحل المناسـب ، فسـأحاول أن أسـاعدك ، وسأرسل إليك عنواني في الوقت المناسب " !

وختمتْ رسالتها بهذه الجملة : " أدعو الله أن يهديك إلـى الحل الذي يريح الجميع " !

(٢)

((أيتها الأخت الطيبة !

قرأتُ رسالتكِ مرتين . فقد سرني جداً أن تبـادري إلـى نجدتي في مثل هذه السرعة ، فإن المقالة التي أشرتِ إليها لم يمض على نشرها شهر واحد !

وقد تمعنتُ في الحلول الثلاثة التي عرضتِها في رسالتك ، فوجدتني لا أقوى على الأخذ بالحل الأول الذي يقضي ببيع الكتب وتأسيس مكتب عقاري أو مضافة أستقبل فيها السماسرة ورجال الأعمال ، فإني لا أتقن فن الدخول من باب والخروج من باب آخر . ولا أحسن الكلام إلا بلغة البسطاء الذين يرون أن الدنيا لا تستأهل أن يكون للإنسان فيها ثلاثة وجوه وخمسة ألسنة . ولا أعرف كيف أدير رؤوس الناس ، فأجعلهم يمشون بأرجلهم إلى الحفر المستورة !

والحل الثاني الذي يقضي بالصبر على هذه الحال التي وصفتِها ، صعب ، فالشكوى فيها لن تنقطع !

يبقى إذن الحل الثالث الذي يقضي بالبحث عن ربة بيت تقبل بهذه الحال . فهذا ، فيما أرى ، هو الحل الأمثل الذي أستريح إليه ! وما أظن أننا مضطرون إلى بذل جهد كبير في السعي إليها. هي أقرب إلينا مما تظنين . ولو فكرتِ في زيارتنا لرأيتِها قائمة في البيت ، في يدها كتاب ، وإلى جانبها كتاب ، وعلى وسادتها ، في أول كل ليل ، كتاب . فهي التي تتولى جمع الكتب وتصنيفها والسهر عليها ، وهي التي اقترحت أن نضيف إلى خزائنها خزانة أخرى هيأتْ لها مكانها في غرفة النوم . ومن اقتراحها استوحيتُ كتابة الموقف المعاكس الذي يمكن أن تقفه المرأة ، في هذه الحال»!

" وقد كنت أكتب مثل الكلام الذي قرأتِه في (شهقة الروح) ، والأم إلى جانبي ، أضع على لسانها هذا الكلام ، فتقرؤه وهي تضحك . وتقول :

ـ تظهرني لمن يقرؤك جاهلة لا أعرف قدر الكتاب . صحيح أننا مظلومون معك ، ولكنّا نقدّر حاجتك إليه . على أني أتمنى أن تكتب على لساني كلاماً غير هذا ...

فأسألها : وما الذي تريدين أن اكتبه ؟

ـ قل لهم : إني نشأت في بيت كان الكتاب فيه يُقدّم على الرغيف ، فأنا مبتلاة به منذ وعيت . كنت آمل أن أجد السعة في بيتك ، فما وجدتُها . قدَري المكتوب . ولكني ، والله ، أحسّ أحياناً أن الكتاب حاجة من حاجات نفسي اليومية ، فلو أني افتقدته لطلبته منك " !

" إن كثيراً مما نكتبه ، أيتها الأخت ، ونديره ، أحياناً ، على أنفسنا ، لا يصح دائماً . ولكنا نحاول أن نصور واقع الحال في بيوت زرناها واطلعنا على أحوالها . والقصد أن نصحح وضعاً نراه معوجاً ، أو يمكن أن يعوج . والقصد أيضاً أن ننفذ إلى حقائق أخرى نتأملها ، وندفع الناس إلى تأملها . ولو أعدتِ قراءة الحديث رأيتِ أن مركز الثقل فيه يقع في كلام الأم المقهورة ، إذ تصور مرارة إحساسها بالإجحاف الذي يصيب أصحاب الكتب والمحابر والأقلام . ولكن الحديث نَهَجَ في التعبير عنه نهجاً تظل الكلمة فيه (ويمثلها الكتاب) تحتفظ بجلالها وسطوعها وقوة روحها " .

" وقد قرأت الأم رسالتكِ ، وأسعدها أن تفكـــري فينـــا ، وتعينني على اختيار الحل الذي يريحنا جميعاً ! ولكنها ، من بـــاب الاحتياط الذي لا تنفك المرأة تلزمه ، كما تعرفين ، ظلـــت تســأل نفسها ، وهي تقرأ الرسالة : متى كان الناس على مثل هذه الدرجــة من المثالية الرفيعة ؟ وتجيب ، وهي تضحك : على أنهم لو عرفوا المخبأ ما أتعبوا أنفسهم ، ولا كتبوا ولا أرسلوا .." !

١٩٩١/٩/٢٦

الأيام الكئيبة

كلما اقترب موسم الامتحانات في الجامعة أدركتْني كآبـــة غليظة ، أغلظ من إعراب صيغ التعجـــب فـــي النحـــو! فمواســـم الامتحانات في جامعاتنا ألحّ من ذباب الصيف ، تطرده عن الأنـــف فيقع على العين ، وينفذ من كل باب ، ولا تنفع فيه وسيلة . والأمر يجري عندنا على هذا النحو : تهبط على الجامعة في أول الموســـم سَكينة مصطنعة ، وينقطع الطلبة عن المدرجـــات بحجـــة التـــهيؤ للامتحان القريب . فترى الجامعة كالبيت الذي هجره أهله .

فإذا مضـــت هذه الأيام وأصبح الامتحان على الأبـــواب ، دبت الحياة في الجامعة دفعة واحدة ، فسمعتَ جلبة تصـــم الآذان ، وامتلأت دروبها وممراتها بالمقاعد الخشبية ، تُنقل من الأقبية أحياناً ، ومن القاعات العالية أحياناً ، فتصعد أدراجاً وتهبط أدراجاً ، بخشبها وحديدها ، وتصفّ في الدروب والممرات . وتعيَّن عليـك إذا أردت أن تجتازها ، أن تلتوي يميناً وتنطوي شمالاً حتى تفوز بنفسك .

ثم يقبل الأساتذة وأمناء السر والمراقبون فيصطفّون فـــي القاعات والممرات . تدور عيونهم في الطلبة وهم على مقـــاعدهم ، يحصون عليهم أنفاســـهم ! ويقولـــون : إنه شر لابد منه ، ومحنة

مكتوبة ، لابد من معاناتها . إذ كيف يتم سبر المعلومات في غير رقابة ؟ وكيف تكون الرقابة دون مراقبين ؟ وكيف ينتظم المراقبون بغير هذا الجهاز كله ؟ ثم إن المجتمعات المتقدمة لم تجد ، هي أيضاً ، إلى اليوم ، بديلاً من هذا الأسلوب لقياس المعرفة !

على أني ما أعرف ساعة أثقل على النفس وأطول في حساب الزمن من هذه الساعات التي نقضيها ونحن ندور بين مقاعد الطلبة كالطيور المحبوسة في الأقفاص : أيدينا مغلولة ، وعقولنا تعمل في الفراغ ، وعيوننا ترصد الحركات واللفتات ، وآذاننا تلتقط الهمسة الطائرة ، فأي قدر صعب يسوق الإنسان في الحياة إلى التسليم بمثل هذا النظام ؟

ولكنْ مالَنا ولهذا كله . فلأعد إلى ما كنا فيه ، فأقول : إنه يتعين علينا ، في كل موسم من هذه المواسم الكئيبة ، أن نحمل إلى مكاتبنا وبيوتنا أكداساً من الأوراق المحبّرة ، نقعد نسامرها أسابيع طويلة بليلهاونهارها ! ثم تظل عيونهاالغامضة الحزينة ترقبنا ، وتومئ إلينا ، وتستدعينا ، حتى تفسد علينا طعامنا وشرابنا . حتى لَنُوشك ، في هذا الموسم ، أن نكون غيرنا في أيام السنة الأخرى . نلتقي فيسأل بعضنا بعضاً : هل انتهيت ؟ وكم أنهيت ؟ وكم أبقيت ؟ ونرى الأولاد يضيقون بما يرون منّا ، إذ يكون البيت حينذاك في مثل حال الطوارئ .

ثم إني كلما قاربت أن أنهي ورقتين طرحت الأوراق من جديد وعددت ما أنهيت منها ! ثم إني أبدأ بتصحيح الأوراق البيض

التي سلّمها أصحابها كصحيفة الأنبياء لا شائبة فيها ، كـــأني بـــهذا ومثله استكثر ما أنجزت ! ثم إني ما أكاد أمضي قليلاً حتى أطلـــب أن يدركوني بما يبلّ يبوسة الحلق . فإذا شربته وتنفســـت أردفتـــه بطلب ما يعين على صحو الذهن ، والأولاد يتراكضـــون بين يـدي جائين رائحين ، في أيديهم الأكـــواب والفنـــاجين . وتراهـــم الأم فتضحك وتقول :

ـ تذكّرني ، في هذه المواسم ، بأيام الحمْل عندنا : يدركك الوحْم أولاً ، ثم تقع في المخاض ! لو أســـلمتني هذه الأوراق أنهيتها لك في ليلة واحدة ، وانتـــهينا مـــن هذا الكرب الذي نقع فيه ما يقـــرب من نصـــف أشـــهر السنة ! ما يتحرك واحد في البيت إلا ولك به حجة علينـا تحتج بها . نسألك أن تخرج بنا في زيـــارة أو نزهـــة ، فترفع حاجبيك عجباً ، شأنك حين تتهيأ لإلقـــاء إحـدى مواعظك علينا ، تذكّرنا بما أنت فيه من هـــمّ التصحيـــح وأوجاعه ! فإذا سألناك أن تقيم على أوراقـــك وتدعَنـــا نتنفس خارج البيت ، قلت : وتـــتركونني وحـــدي مـــع الأوراق ! فأي بلاء نحتمله معك نصف العمر ! ثـــم مـــا خطب هذا التصحيح الذي ترفعه مثل قميص عثمـــان ، لا تتعب من حجته أبداً ، ولا تطيق أن أكلمـــك فيـــه . كـــل الأساتذة لديهم أوراق يصححونها ، فما أحد مثلك يفعـــل

في بيته ما تفعل أنت . قابلت مرة إحدى تلميذاتك في السوق ، فحين عرفتني رثت لحالي ، وقالت لي :

— هل يعاملكم في البيت كما يعاملنا في الجامعة ؟ لا يطيق أن يرى أو يسمع شيئاً يتحرك من حوله !

*

بهذا ومثله تمضي هذه الأيام الكئيبة ، ونحن منكبون على الأوراق ، نملأ وجوهها بالخطوط الحمر . نرى الطالب راضياً حيناً ، يركض في الورقة طولاً وعرضاً ، يطوف فيها ويتثنى كأنه يقصد أن يقول : هل أزيدك أم كفاك بياناً ؟ ونراه ساخطاً حيناً ، يعجز عن كتمان كَرْبه ، وقد يغريه اليأس فنقرأ شتيمتنا بأعيننا ، وإلى الله المشتكى !

١٩٧٧/٧

من يوميات الزوجين

(١)

حدثني أحد أصدقائي الطيبين ، وكان تزوج منذ زمن طويل ، قال :

" أغراني الغرور يوماً فزيّن لي أني بلغت مبلغ من اجتمعت له الأسباب لكتابة يومياته . فأقبلتُ على كتابتها أياماً ، واخترت لها ساعة أكون فيها فرغت من عمل اليوم كله ، قبل أن آوي إلى الفراش . وتكون الساعة صافية ، بعد أن ينام الأولاد وتنقطع عني أمهم ، فأتحرر من أنواع الرقابات .

ففي اليوم الأول كتبت ما يلي :

اليوم الاثنين ـ تاريخ ......

زارتنا اليوم سيدة صغيرة لطيفة ، لها ضحكة لا يسمع الإنسان مثلها في السنوات مرة . فرأيت من حسن الضيافة أن أسرع إلى الترحيب بها !

مدّتْ إليّ يدها فلم أجد بُداً من تناولها : يد حارة لينة أحسستُها تذوب في يدي . اخترت كرسياً ، في مواجهتها ، وبدأتُ

أرحب بها ترحيباً تجاوز ، على ما يبدو، حدود اللياقة ! رأيت الأم تتحرك في كرسيها حركة قلقة ، وتنظر في وجهي نظرة أعرف معناها . تجاهلتُها مرة ومرة . فلما زاد الأمر عن الحد أسرعتْ تنهض ، فنهضتُ معها ، فوجهتْني إلى الباب ، والتفتتْ إلى السيدة تعتذر لها عني !

ثم لماودعتْها عادت إليّ ، وجرى بيننا الحوار التالي :

قالت : **لطيفة ــ السيدة ...... ــ كيف رأيتها ؟**

(هذا النوع من الفخاخ شائع بالطبع) .

أجبتها في غير مبالاة :

ــ **لا بأس بها في الإجمال !**

هزت رأسها وتساءلت :

ــ **تراها لا بأس بها أم هي لطيفة ؟**

أجبت وأنا أميل برأسي وأمط شفتي :

ــ **يعني .... قد تكون لطيفة !**

فانتقلتْ إلى خط جديد ، وسألت :

ــ **يعني ،هي لطيفة أم هي رائعة ؟**

رأيت هنا من الأنسب أن أضع حداً للموضوع قبل أن يستفحل . ضربتُ بكفي على ساعد المقعد ، وقلت بلهجة تمثيلية خالصة :

ــ **لا لا . . . زدتِها كثيراً ! رائعة ! لا ! أعطيتِها فوق ما تستحق !**

ردت بلهجة قاطعة وقد امتلأت عيناها بالإعجاب والمكـر معا :

ـ بل هي أكثر من رائعة ! ولولا أنـــها تزوجــت لاخترتها لولدنا !

١٩٧٩/٦/١٧

(٢)

تابع صديقي يقول :

" لم أكن أعرف أن الأم تكتب يومياتها أيضاً ، حتى وقـــع في يدي دفتر صغير ، وجدتُها دونتْ فيه بعض خواطرها ، علـــى النسق نفسه ، كأنها كانت تقرأ ما أكتبه فتكتب مثله.

ففي إحدى الصفحات كتبت ما يلي :

اليوم السبت ـ تاريخ ...

هـــؤلاء الرجال يبـــدون كالأطفـــال أحيانـــاً ! يتـــهموننا بالضعف ، وهم ، لا شك ، أضعف منا . ما أعرف ، إلا على وجه الشذوذ ، امرأة تسأل ، بعد زواجها ، عن الرجل . وما أعـــــرف رجلاً لا تستهويه المرأة ، قبل الزواج وبعده !

اليوم صحبنا الأولاد وتمشينا في الصالحية .

رأيتُه يدور بعينيه ، لا يكاد يُفلت منه وجهٌ جميل واحد .
فإذا رآني ألتفتُ إليه اعتدلَ ، ومال يهمس في أذني :

– أعجبتْني تسريحتها فقلت : لعلي أقترح عليك أن تعملي مثلها !

أو يقول :

– أعجبني طراز الثوب فقلت لعلك تجربين مثله !

فأتظاهر بأني اقتنعت.ثم لما وصلنا إلى آخر الصالحية لاحتَ على الرصيف الثاني سيدة بدينة . فلفتُّ نظره إليها. تملاّها بسرعة وعاد يقول لي :

– مالَها ؟

قلت : **ألا ترى التسريحة وطراز الثوب ؟ سأجرب لنفسي مثلهما في أقرب فرصة !**

رأيته يسكت وينظر إليّ في عجب شديد ويقول :

– تجربين مثلهما ! من قال هذا ؟ ألا ترين أنهما قبيحان ! بل هما في غاية القبح !

لم أتمالك نفسي ، فأغرقت في الضحك وقلت :

– ولكنها التسريحة التي أعجبتْك هناك ، وطراز الثوب الذي اقترحتَ أن أجرب لنفسي مثله ! ألم تقرأ في أخبار الأدب الذي تصدع رؤوسنابه ، قول العرب : " إذا كنت كذوباً ، فكن ذَكوراً " !

١٩٧٩/٨/٢٩

حكاية مبتذلة

في شهر واحد فقدتُ ضرسين . لما عدت إلى البيت ، بعد أن خلعت الضرس الثاني ، جلست في ركن أتخــذه لنفسـي فـي الساعات العصيبة. قلت : أقضي هذه الساعة ، أتوارى فيها عـن عيون الأولاد ، وأفرغ لنفسي فأعزيها وأخفف عنها ، ثم أعود إليهم بعدها ، في الصورة التي أحب أن يروني فيها .

ولكني حين استعدت ما أصابني استكبرتُه ، فـإن أمـي كانت تقول لي : الضرس في الفم أثمن من اللؤلؤة . وهما ضرسان متقابلان لا ضرس واحد ، فما أستطيع أن أمضغ الطعام على أحـد الجانبين . ثم إنهما من الطواحن . والطواحن أشد الأسنان ، تقع في موضع الشِدّة من الفم . وتمثلتُ نفسي وأنا ألوك اللقمة فأردُّها مـن طرف إلى طرف ، لا أجد ما أقطعها به ، وأتطلع في العيون مـن حولي ، أخاف أن يراني أحد ، فازددتُ إحساساً بالوجع . أخذتُ أدور بلساني فأركزه في موضع الضرسين ، فيقع في الفراغين ، فما أكاد أصدق نفسي . ويطغى عليّ إحساس بالوحشة لا أستطيع رده .

فهكذا كبِر عليّ ما أنا فيه من الهمّ . وقفتُ أريد أن أمضي فأحدث أحداً بما ألَقى ، ولكنْ صعبتْ عليّ نفسي . فعدتُ أحاول أن أخفف عنها . أخذت أقول : هل الضرس إلا أداة العتوّ والشراسة ؟

فأنا الآن أَلطف وأرقّ وأكثر قَبولاً لدى الناس ، فإنهم يحبـــون أن يعاشروا من هم مثلي ، يستطيبون لحومـــهم مـــن دون أن تكـــون لهؤلاء القدرة على صدّهم !

كدت أستريح لمثل هذه الخواطر ، حين ســمعتُ صــوت الأم يسألني في غير مبالاة :

— دخلتَ اليوم البيت : لا سؤال ولا جواب ! خطـة جديدة تتبعها ؟

قلت ، وقد أثارتني الملاحظة :

— هل تعرفين من عادتي أن أدخل البيـت فـأملأه بالصياح ؟

ثم تذكرتُ ما انتهيتُ إليه ، فقلت في نبرة منكسرة :

— لا تظلميني ! أنت تعرفين أني أحـــب الـــهدوء والسكينة .

تساءلتْ في استغراب ، كأنها تُنكر لهجتي :

— هل أنت على ما يرام ؟ لا بد أن يكون أصـــابك شيء !

لم أتمالك نفسي ، فابتسمتُ مكرهاً . وفتحتُ لـــها فمـــي، فبان القطن وخطوط الدم .

رأيتها تُمســك • ثم تقول في استهانة ، تريد أن تخفـــف عني ، على طريقتها التي تختارها :

ـــ قلعتَ الضرس الثاني ؟ وأنا أقول لنفسي : من أين هبطتْ عليك هذه الوداعة ! تدخل البيت مثل الحمامة لا حسّ ولا خبر !

رأتني أدير وجهي ، فاستدركتْ ، وهي تصطنع المرح :

ـــ الحمد لله ! ستكون لبضعة أيام مثل الملائكـــة ، لا تقوى على محاسبتنا في الصغيرة والكبيرة ، ولا تدسّ أنفك في كل شيء يحدث في البيت !

ثم عادت تنظر إليّ وتقول :

ـــ ولكن مالَك تتطلع في وجهي بحزن ؟ لا تكـــفّ عن التمثيل أبداً . لا تخش شيئاً ، فأنا راضية بك !

أضافت وهي تداري ضحكتها :

ـــ قِسمتي فهل يهرب الإنسان من قِسمته ؟

ثم تابعت تقول في صوت متهدج . تصطنع الكِبَرَ ، وهـــي تقوّس ظهرها وتمشي نحو الباب :

ـــ هيا يا عجوزي العزيز ! تـــهيأْ لـتنـــاول كـــأس الحليب قبل أن تأوي إلى فراشك. إذ يحسن أن تنام الليلة مبْكراً !

واستدارت إليّ ، ففركت كفاً بكـــف ، تريـــد إغـــاظتي ، وانطلقت تنشر الخبر على الأولاد !

في تلك الأيام الصعبة

أقــول أحياناً لنفسي : هل كُتب علينا أن نكتب فـــي كـــل شيء : ابتداء مما نعاني في السوق ، وانتهاء بما نعاني في البيت ، مروراً بما نسمع من أخبار الدنيا وأعاجيبها ؟

في السوق ، مثلاً ، نكتشف أن المعجزات لم تنته أيامــها ، فقد تضاعفت الأسعار أربع مرات وبقي دخلنا ودخل أمثالنا ثابتـــاً . وبقينا مع ذلك نأكل وننام ونصحو ، ونحمد الله !

وفي البيت نكتشف أن المعجزات لها أثمانها . إذ لابـــد أن يعيد الأولاد الكرَّة (بتشديد الراء إلى نهاية الزمان) علـــى ألبســة الشتاء ، كما أعادوها من قبل على ألبسة الصيف . ولابد أن تتنازل أمهم عن شهوات النفس وحاجات "الدنيا الفانية " ، وتقنع بـــالحديث عنها إلى الأهل والجيران !

دخلتْ عليَّ هذا اليوم تقول وهي تحاول أن تتماسك :

ـ اســمع ! من أين يأتي النـــاس بزيـــت الـــذرة الرائع الصفرة ، في أوعيته الأنيقة ، فيستعملونه في قلو الخضار، ونحن لا نجد مثله لدسم الطعام ؟ انقطع زيـــت

الاستهلاكيات عنا منذ زمن طويـل ، وانقطـع السـمن والشاي والأرز ، وأصبحت دفاتر التموين تنفع في كشـح الغبار . في الأمثال يقولون : البيـض لا يقلـى بغـير السمن البلدي . وقد انقضت أيام هذا السمن ، فرضينـا بسمن البساتين والنواعير . ثم انقضت أيام هذا السـمن أيضاً ، فرضينا بزيت الذرة . ثـم انقطـع هـذا الزيـت فرضينا بزيت الاستهلاكيات الذي يصبونه في الـبراميل الكبيرة . فحين لا نجد هذا الزيت ولا نصل إلـى غـيره فكيف تريد أن يُطهى الطعام ؟ بدعوات الأولياء وتعـازيم أهل السحر ، أم بأوصاف أصحاب الأقلام الذين يقعدون ، مثلك ، على كراسيهم ، ويكتبون عن " المدينة الفاضلة " ومثاليات أهلها !

قلت أقاطعها :

– انتظري ! فأما زيت الذرة في أوعيتـه الأنيقـة كمـا تقوليـن ، فمـزروع علـى أرصفـة الأسـواق والمنعطفات التي يعرفها رجال التموين ، بـل يعرفـون مصادرها أيضاً والطرق التـي تسـلكها إلـى الأسـواق والمنعطفات . يعملون ، فيما يبدو ، بمقتضـى الحكمـة اليابانيـة الشـائعة : لا أسـمع ، لا أرى ، لا أتكلـم ! والمأمول ألا ينشطوا حتى لا يتضاعف ثمن الزيت !

وأما انقضاء زمان المعجزات، فأنتِ على خطأ فيه، فكيف كان يمكن أن يصبح اسم الدولار على شفة بائع البصل والبقدونس عندنا لو لم تقم في حياتنا إحدى "المعجزات الاقتصادية" !

وأنت على خطأ أيضاً في مسألة " المدينة الفاضلة ". فهي فاضلة لأنها ابتعدت عن السوق وحاجاتها . فأما إذا اقتربتْ منها فمن أين يأتيها الفضل ؟ ألم تقرئي أن سيف الدولة أحب يوماً أن يخصص للفارابي، أيام كان يعيش في كنفه، قسطاً منتظماً من المال، فردَّه الفارابي وقال : حسبي أربعة دراهم كل يوم، وثوب في الصيف وثوب الشتاء، فإني أريد أن أفرغ لمحاورة طلابي في طرق الغوطة ؟.

فكأني ألقيت بهذا الكلام زيتاً على النار ! رأيتها تهجم على الكلام وهي تحرك يديها يميناً وشمالاً :

ـ فلقتنا بالكلام على الفلسفة والفلاسفة ! نسألك عن زيت الاستهلاكيات وسمن النواعير فتأتينا بالفارابي وسيف الدولة وأصحاب المدينة الفاضلة ! فلو سألناك عن السمن وتوابعه، وعن السكر والأرز، وعن الشاي والبن، وعن اللحوم والدجاج، فكيف تقول ؟ ومن يسعك تأتي به، بعد جلال الفارابي وسيف الدولة وأصحاب .. .. ؟

اغتنمت الفرصة السانحة وقلت في حرارة أحسستها تفيض من قلبي :

ـ آتي بجلال الله وجلال ملائكته وأوليائه !

فنكست رأسها وهي تقول في انكسار ، كأنما أذهلتها المفاجأة :

ـ أبشر إذن ، فهذا الذي يبدو أنه تبقى لنا هذه الأيام !

١٩٩٢/١/٦

سلّة البيض

لي صديق حلو الدعابة ، مطِّلع على أصناف من الأدب ، له ولد تخرّج في كلية الطب ، ولكنه ما يزال يعيش في كنف أبيه. وكان مثل أبيه : لطيف الروح ، يتقن صوغ الدعابات . طال به الأمر ، بعد التخرج ، فافتتح لنفسه عيادة صغيرة في بعض قرى الريف .

حدثني الأب الصديق ، على طريقته حين يلقاني ، فقال : حمل ولدي معه ، من القرية التي يعمل فيها ، سلّة بيض صغيرة ، أهدتها إليه امرأة فقيرة من نساء القرية ، كان أشرف على علاجها. فكان من شأنه ، لما دخل البيت ، أن لوّح بالسلّة حتى رآها كل من فيه . ثم جلس فحبسها بين ساقيه ، وأطال النظر إليها . ثم أزاح عن وجهها قليلاً من التبن ، فانكشف لون البيض ، فأخرج واحدة منه ، وأقبل يرطلها بيده يظهر أن يده تنوء بحملها ! ثم التفتَ إليّ فقال :

ـ علينا ، كما ترى ، أن نقاسمك هموم المعيشة ، ونحتمل معك بعض النفقات ! هذه أربعون بيضة بلدية باضتها الدجاجات في قِنّها النظيف. أين طعمها من طعم

بيض المداجن الذي درجتم على أكله ! الواحـدة منـها تسوى مئة من تلك ! لهذا يندر أن ترى مثلها في دكاكين الباعة ! أين تجد بيضاً بهذا الحجم ؟ وهذا اللون ؟ وهـذا الطعم ؟

ثم قلّبها في يده وقال :

— لابد أن تعجبوا ، حين يحين موعد أكلها ، مـن سعة صفرتها ، على غير ما اعتدتم أن تروه في بيـض المداجن ! وصفرتهاخفيفة ، لا يكون مثلها إلا في البيضة البلدية الطازجة . لهذا تشمون في رائحتها رائحة الحيـلة في طور التكوين الأول ، إذ تكمن فيـها روح الدجاجـة الوديعة التي غذيت بأطيب الحب !

وفتح يده بالبيضة ، وتناول يدي فوضعها فيـها ، وتـابع يقول :

— تراها ساخنة قليلاً ، لأنها طازجة. فـالبيض لا يؤكل إلا وهو طازج ، تعرف ذلك من شفافية القشـرة . فالبيضة إذا باتت كمَد لونها !

ثم نهض فحمل السلة ورفعها حتى أصبحت في مسـتوى النظر ، وقال :

— تسمعون القول المأثور : "من أكل بيضـة فقـد أكل دجاجة ". فهذا القول لا ينطبق إلا علـى مثـل هـذا البيض ، لأن صاحبه لم يكـن يعرف ، في ذلك الزمـان

الطيب ، بيض المداجن . ولو عرفه لم يُنزل البيضة هذه المنزلة الرفيعة . ففي هذه السلّة إذن أربعون دجاجة بصدورها الممتلئة وأفخاذها المدورة ورقابها الطرية !

سكت الأب قليلاً ، وهو ينظر في وجهي ليرى ما فعل كلامه فيه ، ثم تابع يقول : وسار حديث البيض في البيت ، وتفرّعت عنه موازنات جديدة : فما القيمة الغذائية لهذه البيضة إذن بالقياس إلى بيضة المداجن ؟ وفي أي أجزائها تكمن هذه القيمة ؟ وأي الطرق أجدى في أكلها : مقلية أم مسلوقة ؟وهل يضيرها أن تضاف إليها عناصر أخرى ؟ وفي أي أنواع المآكل يحسن أن تدخل ؟ وفي أي الأوقات يحسن أن تُتناول ؟

ثم تفرعت عن هذه الموازنات تواريخ ومقاييس جديدة في الزمان والمكان : ففلان من أهل الحي مات يوم أحضر ولدنا سلّة البيض ، أو قبله بيوم ، أو بعده بيومين ! وحرب الخليج ابتدأت بعد منتصف الليلة التي كسرنا فيها البيضة الأولى ! ثم صار ، إذا نهض أحد الأولاد لأمر ، قالوا له : احمل معك هذا الإناء ، فضعه إلى جانب سلة البيض ، أو تناولْه من الرف الذي وضعنا عليه سلّة البيض ! وإذا أصابت أحدنا وعكة سمع من يقول له : ذلك لأنك لم تحتمل دسم هذا البيض ! وإذا عوفي قالوا : ذلك لأنك انقطعت عن أكل هذا البيض ! وإذا عطس قالوا : يبدو أنها رائحة البيض تغلغلت في أنسجة الأنف ! وإذا رفع صوته قالوا : معلوم ! تلك

قدرة البيض تشدّ أوتار الحَنجرة ! وإذا انخفض صوته قالوا : عليك بهذا البيض فهو يقوّي العزائم !

*

قلت لصديقي وأنا أغرق في الضحك :

ـ فقد صار هذا البيض إذن مثل دجاجة أبي الهذيل التي أصبحت مثلاً في التاريخ !

قال : **وما دجاجة أبي الهذيل ؟**

قلت : **حديثها طريف ، حكاه الجاحظ في كتاب (البخلاء) ، ولابد أن أحكيه لك ، في يوم من الأيام !**

حوالي ٢٠٠٠/٣/١٢

الجدّ في موطن الهزل

لا أدري كيف حوّلوا إليّ ، في أحد الأيـــام ، مــن إدارة الجريـــدة ، الكتاب الغريب التالي ، فحمّلوني أمانة نشــــره . وقــد ورد ، للعجب ، من السودان . وأنقله بنصه ولغته :

" بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور : ....

السلام عليكم

في البداية يسرني أن أعرب لسيادتكم عن إعجـــابي بمـــا ينشر في صحيفتكم من مواضيع . وأود لو تكرمتم بمساعدتي فــــي حل مشكلتي هذه ، وذلك بنشرها عبر صفحاتكم لو أمكن . وهــــي تتلخص في عدم تمكني من اختيار الشريك المناسب للحياة الزوجية ، وذلك لظروف نشأتي الأسرية . وأنا أرغب في الزواج من سوداني ، مسلم ، متدين ، عمره أكثر من ثلاثين عاما ، وتعليمه فوق الثـانوي العالي .

مواصفاتي :

ليلى م.ص.

سودانية ، مسلمة ، مطلقة دون أطفال .

العمر ثلاثون عاماً / موظفة

العنوان : ص.ب .. الخرطوم ــ السودان".

لعل السيدة الفاضلة ظنت أني صاحب الجريدة ، فوجهت الكتاب إليّ . أو لعل عدداً من أعدادها ، وقع في يدها ، وفي زاويته اسمي ، فظننت هذا الظن الذي أحكي للقارئ حكاية ما استتبع من الشرور :

وصل الكتاب إلى البيت ،وأنا غائب عنه ، بعد أن طاف مكاتب الجريدة . حوّلوه إلى الأستاذ ... أولاً ، فحوّله إلى الأستاذ ... المشرف على الصفحة الثقافية . وكان ولدي في زيارة الجريدة ، يحمل إليها أحد الأحاديث ، فحمّله المشرف الكتابَ إلى البيت ، وأوصاه ، مشدّداً ، أن يسلمّه إليّ يداً بيد ، وألا يسلمه إلى أمه أبداً !

سلّم الولد الكتاب سريعاً إلى أمه بالطبع ، وهو مفتوح ! فابتدأت تقرؤه في غير اهتمام . ثم أخذت شيئاً فشيئاً تزوي ما بين عينيها . وسكتت ، بعد أن استوفت قراءته ، زمناً ، كأنها تتملّى القضية !

ثم أخذت تفلّي الكلمات . تقول لنفسها :

" تريده إذن فوق الثلاثين ، دون تحديد !

وهي ، بوصفها مطلقة ، يصح أن تقبله ، متزوجاً

مم .. (تزفر بها وهي تهز رأسها) !

ولأنها لم ترزق الأطفال ، فهي لا تمانع أن يكون له أولاد !

تبقى صفتان :

التدين والسودانية

فأما التدين فالحال فيه لا يكشف سترها إلا الله !

والسودانية شرط يمكن التنازل عنه في نهاية الأمر !

وإذن فالكتاب ، في حقيقته ، موجّه إليه " !

(قالتها وهي تتجه إليّ . وكنت دخلت البيت وأغلقتُ الباب خلفي ، فانتبهتْ إليّ) .

أخذتُ أنظر في وجهها ووجوه الأولاد ، أريد أن أعرف حقيقة ما يجري . وكان الولد فوجئ بتحليل أمه للكتاب على هذا النحو القاطع ، وترتيب تلك النتائج عليه . وحبستْه المفاجأة ، فأخذ ينقل عينيه في وجه أمه ، ووجوه أخواته ويلوّح بيديه ، لا يعرف ما يقول .

اختطفتُ الكتاب . قرأتُه في لمحة ، وانفجرتُ بالضحك . فزاد غضبها ، واتجهت إليّ ، هذه المرة ، مباشرة ، تقول :

ـ " تضحك لتميّع الموضوع ! أنتم دائماً كذلك: تضحكون حين تتلبسكم التهم ، ولا تجدون ما تقولون . تلجؤون ، في زعمكم إلى العقل ، كأن العقل حِكْر عليكم لا يحمله إلا الرجال ! ولكني ، بإحساس المرأة ، أدرك أنك متورط في مسألة تغزل الآن خيوطها في صمت !

هل تستطيع أن تقول لي : لمَ اختارتك هذه السيدة من دون العاملين في الجريدة جميعاً ومَن يكتبون فيها ؟ لم تكن،بالطبع،تظن أنهم سيرسلون الكتاب إلى البيت ! وما يدريني أن تكون جعلتَ عنوانك ، بينك وبينها ، في الجريدة ، بعيداً عني وعن الأولاد ! وما يدريني ألا تكون من السودان ، ولكنها أرسلت الكتاب منه ، لأنها تعمل فيه ؟ وما يدريني ..."

كنت كالمذهول أتطلع فيها وفي وجوه الأولاد ، لا أعرف ما أفعل . أغالب نفسي لأستنفد حاجتي إلى الضحك . وكان الولد يغالب نفسه أيضاً . ثم ما لبث أن ارتمى على أمه وأخذ يهزها يريد أن يضحكها ، فلم تزد على أن ابتسمت في فتور ، وهي تقول :

– " ولكنكم لا تستطيعون أن تخدعوني أبداً ! وقد صدقتْ فلانة من قريباتنا حين قالت : كلهم سواء" !

١٩٨٦/١١/٢٨

(٤)

مع الأصحاب

مع الأصحاب

لا يغني شيء عن الكتاب . إذا تغاضينا عما نجد فيه من تهذيب العقل وتعميق الفطنة بالأشياء ، إذ لم تعد لهذه المعاني سوق يزدحم الناس فيها ، وأصبح تهذيب العقل ورهافة الفطنة مما يزيد في ألم الإنسان ، ويشغله عن تسلق السلالم العالية ، ففي الكتب – على كل حال – سلوة عما تراه العين وتسمعه الأذن . وفيه عزاء القلب وفرجة الخاطر .

فهكذا عنّ (بتشديد النون التي يشددها الإنسان في الأحزان) على بالنا ، نحن جمعاً من الأصحاب الممتحَنين بحب كل ما هو بائر ، أن نجتمع في كل أسبوع مرة ، نقرأ صفحات من كتب نختارها ، ونعلق عليها تعليقات ساخرة أحياناً كثيرة ، جادة في بعض الأحيان . ولأننا زملاء الدراسة ، فقد يجنح بنا الحديث فنتذاكر أيامنا السالفة .

ولمّا كنا نخوض في حديث الزمان ، والليل والنهار ، فقد قرأنا في إحدى الليالي نصاً للثعالبي من كتاب (ثمار القلوب في المضاف المنسوب) خصّه بالتعريف بالشائع على

الألسنة من طوائف المضافات والمنسوبات ، كقولهم "حمق الضبع ، وحرص الخنزير ، وابنة العنقود " ، فإننا نجد أحياناً في كتب الأسمار ، من معاني الحياة وصورها وصور الناس وطبائعهم ، ما لا نجده في الكتب الكبيرة ، على مثال ما نجد أخطر المعاني أحياناً في صغرى الكلمات .

أقول : قرأت يوماً لأصحابي ، من هذا الكتاب ، تعريفه بقول العرب: "وجه النهار"، وهو أوله وأحسن ساعاته . والعرب تقول : وجه الدهر ، ووجه القوم ، ووجه الزمان . ومن قول أبي العتاهية :

يا عاشق الدنيا يغرك وجهها

ولَتندمنّ إذا رأيتَ قفاها !

فقطع بعضهم عليّ القراءة وصاح :

ــ يا سلام ! فما يقول إذن في مَن لم يعرف وجهها على الإطلاق ، ولم يطالع إلا قفاها ؟ فأي ندم على الحياة يكفيه !

وبدرت الفرصة لأحدهم ، فحكى لنا حكاية الرجل الذي زعموا، في قديم الزمان ، أنه سمع أن الزواج مثل برميل العلقم ، تغطيه طبقة من العسل ، تكون رقيقة أحياناً ، وتكون سميكة أحياناً ، ولكن لابد ، في كل حال ، أن ترقَّ مع الزمان ، وتخترقها يده في آخر الأمر !

ثم انتهى ، مع هذه العبر المؤثرة ، إلـــى الإقــدام علـــى الزواج ! إذ يبدو أنه لابد منه في آخر المطاف ! وصور لنفســه أن العسل سيكون ، منذ اليوم الأول ، في طلّة العروس عليه ، وفـــي بهاء طلعتها .

فلما كانت ليلة الدخول مد يده فكشـــف عـــن وجهـــها ، فوجدها عمشاء ! وتنفست في وجهه ، فوجدها بخراء ! وأطبقـــت فكيها ، فوجدها فقماء ! فكاد يطير ، وانتابته لحظة من هياج العقل ، وظن أنه أخطأ ففتح البرميل من أسفله ! فمد يـــده فقلبـــها وجمـــع رجليها إحداهما إلى الأخرى ، فوجدها عرجاء ! فقال لنفسه : لابـــد إذن أن تكون طبقة العسل في الوسط ، فمد يده يريد خاصرتها ، فلم يكد يقع على الخصر لضعفها ، إذ كانت عجفـــاء ! فانكســـر كلـــه وهمدت نفسه . ولكنه أبى أن يستكين ، فغطى وجهها وأخذ يعـــزي نفسه فيقول :

– **وإذن فلابد أن يكون العسل في داخلها !**

فصاح أحدهم :

– **يا ألله ! فما أشبه هذه العروس إذن بالواقع الذي نحياه !**

١٩٨٧/١٢/١٣

جلسة في الزهد

حين يعيش الناس في مثل الأيام التي نعيش فيها ، يلجؤون إلى التناجي والتشاكي ، وتناقل أخبار الزهاد والتوابين وأهل الحكمة ، عساهم يجدون في من سبقهم عزاء لأنفسهم . فإني ما دخلت ، هذه الأيام ، مجلساً إلا سمعت الناس يتحدثون فيه عن الغلاء ، أو عن الكساد . يقيسون حالهم بحال من يحيط بهم . ويطيرون فزعاً لبعد ما بين الدخل والخرج ، كما يقول أهل البوائك التجارية القديمة . حتى كادت هموم المعيشة تطغى على الهمّ القومي الذي نعايشه منذ فتحنا أعيننا على الحياة !

فمن هذا الباب جمعتُ أخباراً في الزهد والقناعة ، ونويت أن أقرأها على الأصحاب في جلسة الأسبوع التي ما تبقى لنا غيرها من نِعَمُ الزمان ، عدا نعمة القناعة التي يسبح في بحبوحتها أهل الكتب والمحابر والأقلام ، منذ فجر التاريخ على ما يبدو !

بدأ الجلسةَ زميل لنا كان كثير التشكي مما يلقى في بيته من الضيق . كان من بعض أرياف حلب . وكان أهله يرسلون إليه الحنطة ، فيطحنها ويستغني بخبزها عن الوقوف على أبواب

الأفران ، يقصدون أن يعينوه على الحياة أيضاً . فقال : إنه دخل على زوجته فرآها ازَينت وتعطرت . ثم حانت منه لفتة فوجد كيساً ملقى على الباب . فسألها فعلم أن الطحين نفد ، وأنها نفضت الكيس وألقته على الباب .

قال : فوالله لقد ذُهلت عن كل شيء ، كأن يداً امتدت فاقتلعتني من نفسي! وذكرتُ الأفران وما يلقى الناس على أبوابها ، في تدبير الرغيف ، وما ينتظرني فيها ، فلم أعد أعرف ما أفعل . فبدلاً من أن اتجه يميناً اتجهت شمالاً ، ففتحت الباب وخرجت من البيت !

علَق أحدهم وهو يضحك :

ـ إلى هذا الحد ؟ وما ذنب المسكينة أن يخيب رجاؤها فيك ؟

فرد عليه في حدّة :

ـ أو كان يلزم أن تلقي بكيس الطحين الفارغ على الباب ؟

وجدتُ الفرصة سنحت هنا ، فقلت :

ـ تعالوا نجعلها جلسة في الزهد ، فإنه لا شيء يدوم مع الموت ! ولنا في الناس الذين جمعوا المال وتكثّروا به عبرة : فقد ذهبوا بإثم الذي جمعوه بالحق وبالباطل ، وخلفوه للوارثين واللصوص وأحداث الزمان الغادرة ، لم يحملوا معهم منه قَشّة واحدة .فالمسألة

مسألة عقل ، لو عقل الناس ما أكل بعضهم بعضاً ، ولا طغى بعضهم على بعض ، ولا عظّموا بنيانهم للخراب ، ولا نسلوا للموت . ألستم تذكرون قول أبي العتاهية :

لدوا [١] للموت وابنوا للخرابِ
فكلكم يصير إلى تَبابِ [٢]

وقد مر أبو ذر الغِفاري يوماً ، وكان يتكئ على عصاه ، بمروان بن الحكم ، وهو يبني داره في المدينة ، فوجده يُعلي شرفاتها ، ويزين جدرانها ، ويبالغ في الإنفاق عليها ، فأخذ يتطلع فيها . ثم قال له ، من كلام طويل :

ـــ يا أبا عبد القدوس ! ابنِ شديدا . وأمّل بعيدا . وكُلْ خَضْما [٣] . والموعد الله !

وقال الإمام علي بن أبي طالب ، يوماً للناس :

ـــ إن لكل مأموم إماماً يقتدي به. وإن إمامكم (يعني نفسه) قد اكتفى من دنياه بطِمريه [٤] ومن طعامه بقرصيه [٥] . ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسَداد !

---

١ ـــ من (ولَدَ) .

٢ ـــ الهلاك .

٣ ـــ الأكل بجمع الفم .

٤ ـــ الثوب البالي .

٥ ـــ أقراص الشعير .

والمتنبي يقول في الدنيا :

تفــانى الرجال على حبها

وما يحصلون على طائل !

ولعلكم تذكرون قول لبيد أيضاً :

وما المال والأهــلون إلا وَديعــة

ولابد يومـــاً أن تُــردَّ الودائــع !

رأيت الزملاء سكتوا هنا كأنما غمرهم ذكـــر المــوت .

وفجأة صاح زميلنا الريفي صاحب كيس الطحين :

– يا أخي! تجيئنا بهذا الكلام الذي يميت حشيشــة القلب ! ما كفى نموت في بيوتنا قهراً وحرمانـــــاً حتــى تأتينا بهذا الكلام عن الموت وأحزانه ! نحن يا مولانــا لا نريد قصر مروان بن الحكم ، ولا أموال لبيد ، ولا دنيــا المتنبي . نحن لا نطلــب ما فوق الكفـــاية . فســبحان الله ! نأتيك بذكر الرغيــف وكيــس الطحيــن ، فتأتينــا بالتاريخ ورجاله وفصحائه ، تذكِّرنـــي بقــول العــرب : "متخم يخــ ... على جائــع " ! ولا تؤاخذني في ســوء اللفظــة ، فهي ، مهما بلغت ، لن تبلغ سوء الواقع على أي حال !

١٩٨٨/٥/٢٩

دميتان

حين لقيت أصحابي ، في الجلسة التالية ، قرأ علينا واحد منهم ، نعرفه بالغ الحساسية ، هذه الخاطرة ، وكان كتبها ، على ما يبدو ، في ساعة من ساعات بؤسه . قال :

" تعتادني ، في بعض الأيام ، حال من الحزن أكاد لا أحتملها . أنظر في يومي فما أجد سبباً يدعو إليها . فأقول : لعله اضطراب غامض في بعض نواحي الجسد أجد صداه في النفس . ثم أعلم أن صورة سيئة من صور الماضي طفت على السطح ، في لحظة عارضة ، فخلّفت كدرها ومضت ، دون أن أحس بها إحساساً واضحاً .

ما أدري ، هل تعتاد الناس جميعاً مثل هذه الهموم الغريبة ، أم هو إرث التكوين ؟ فإني أسترجع ، أحياناً ، موقفاً فجاً من مواقف الصبا أو الطفولة ، فأخجل منه خجلاً لا أعرف كيف أداريه ، كأني أقفه اليوم ! فكيف يكون الماضي عبءاً على الحاضر ، على هذه الصورة ؟ وهل ينفع المنطق والعقل في مثل هذه الأحوال ؟ فإن الإحساس بالأشياء مما لا ينفع العقل دائماً في التأثير فيه ! ولكن كيف يخرج الإنسان من ماضيه ؟ وهل تخلو

حياة من الأخطاء والحماقات مادمنا نبدأ الحياة صغاراً ، ثم نتقدم فيها إلى مراحل النضج ؟ لكني ، مع هذا ، لا أجد شيئاً أتعزى به عنها . وقد أذهب إلى درجة الإحساس بالذنب مما أتيت منها .

أرى الناس الذين كنت أعرفهم ، وأنا على هذه الحال ، فأطرق وأنا أحييهم كأني أعتذر إليهم مما لا يذكرون منه شيئاً ، حتى ليحارون في تفسير ما يجدونه مني ! ولو عرفوا أني أحمل عبء إساءة لم أقصدها ، في مرحلة لا يُسأل فيها الإنسان عما يأتيه ، وأحاول أن أكفّر عنها ، لقدّروا ما أنا فيه .

لقيت مرة صديقاً قديماً ، وكنت يوماً ، حين كنا في مرحلة الصبا ، نختصم في مسألة نسيتها ، فاشتددتُ عليه بالكلام . ثم حملت هذا الموقف الحادّ معي إلى الفراش . حاولت أن أنام فما استطعت . وعدت أتمثله وقد اضطرب اضطراباً شديداً ، وأخذ يغالب نفسه كأنه يوشك أن يبكي . أخذت أتضوّر في الفراش ، وأنهض من شدة التوتر ، ثم أعود فأستلقي ، وأدور وأتقلّب . وما صدقت أن يصبح الصباح ، فنهضت فكتبت إليه رسالة من أسطر قليلة أذكر أني قلت له في آخرها : فهل تغفر لي ، أيها الصديق ، هذا الذنب حتى أنام ؟ فتلقيت منه ، بعد أيام ، رداً فيه من نبل النفس ما جعل إحساسي بالذنب يقوى حتى لأذكره اليوم أول ما أذكر من حماقات ذلك الزمان !

أقول : إني لقيت هذا الصديق اليوم . فلما صافحته نبض في كفي هذا العرق ، فعاودني الإحساس بالذنب ، واحمر وجهي

إحمراراً غريباً . وأخذت أهـرب من عينيه وهو يلاحقني بالسـؤال عني ، ويلح علـيّ أن أزوره . قضيت يومي بعـد لقـائه كئيبـاً ممـروراً . وتمنيت أن أقول لولدي ، حين عدت إلى البيت ، شـيئاً يجنّبه ، في مستقبل أيامه ، ما أعاني منه اليوم . ولكنـي وجـدت الحديث غريباً ، كأني أريده أن يتخطى به عمـره . فما بـدأتُ الحديث حتى تحولتُ عنه ، فأخذ الولد ينظر في وجهي ويتحول إلى أمه يسألها أن تعينه عليّ ، فأسرعت الأم فحملته عني وهي تقول :

ــ ما تكف عن هذه الفلسفة حتى يدوخ الولد بيـن يديك»!

ثم ختم الصديق خاطرته بهذا التعليق :

« بهذا ومثله يتصل حبل الحياة ويهتز بيـن مراحلـها . يحمل الواحد منا أثقال الماضي فلا يلقيها أبداً . فيا ليت سـر هـذه الدمية التي تلعب بها الحياة ، وتشقيها وتشقى بها ، ينكشـف قبـل فوات الأوان " !

رأيت أصحابي ، بعد أن أنهى صاحبنا قراءة ما كتبـه ، يتبادلون نظرات الاستغراب ، كأن الرجل خرج عليهم مـن وراء التاريخ . قال واحد منهم ، وهو يداري بسمته الساخرة :

ــ فإني أعرف دمية أخرى تسكن إلى جانبنا فـي عمارة ملاصقة . في ذمتها دم مسفوك . ولـها تسـعة عشر مولوداً . تكاد تسـتوفي في عشائها خروفاً بحاله ،

وتنام بعده قريرة العين ، عشر ساعات كاملة ، يُسمع غطيطها فيها من بيوت الجيران !

فأقبل الأصحاب ، بعد أن سمعوا ما قال صاحبهم ، يسأل كل منهم الآخر :

– فأي الدميتين تحب أن تكون ؟

١٩٧٨/٦/٩

دردشة

أعرف أن القصد من هذه الأحاديث أن يقرأها القارئ ، وهو يستقبل يومه ، فيجد فيها خفة ولطفاً يعينانه على تحمل ما يحفل به يومه من جهامة الأحداث ، ابتداء من تحصيل لقمة العيش ، وانتهاء بأخبار حشد الأساطيل في مياه الخليج !

لابد ، في كل حال ، من أن نحاول أن ننسى هذه الأحزان ونرحل عنها . فقد نقلوا إليّ ، في جلسة الأسبوع التي يجتمع فيها الأصحاب ، حديثاً جرى بين أستاذين من أساتذة الجامعة ، تمّ في بيت أحدهما ، وأحب أن أشرك القارئ فيه :

زار الأستاذَ زميلُه ، فأسرّ إليه الأستاذ ، صاحب البيت ، الخبر التالي :

— **سألتني زوجتي اليوم ، وهي حامل كثيرة الشهوات ، أن اشتري لها كيلوين من الدراق وكيلوين من الإجّاص !**

سأله زميله متعجباً :

— **دراق وإجّاص دفعةواحدة ! ومن تظن زوجها : متعهد الأبنية الحكومية ، أم صاحب بقالية العصر ؟**

طفحت المرارة على وجه الأستاذ ، صاحب البيت ، إلى حد الاستهانة بكل شيء ، فعدل عما كان فيه ، وقال لزميله :

— تقول بقالية العصر ؟ هل صارت دكاكين البقالة تسمى بأسماء الصلوات الخمس : بقالية العصر وبقالية المغرب وبقالية العشاء ؟

أعجبت الزميل هذه الملاحظة ، ووجد الباب مفتوحاً ، فأغرق في الضحك ، وقال :

— يا جاهل ! أستاذ في الجامعة ولا تعرف أن من معاني العصر : الزمان ! فالتسمية تعني : بقالية هذا الزمان . يعني أن فيها ما يطلبه ابن العصر من المعلّبات الحديثة والفواكه النادرة ، من مثل لحوم المرتديلا المهربة ، والأرضي شوكي ، وجبن القشقوان ، والكمّأة ، والفطر الصحيح والمشطور ، وثمر المانجو ، والكيوي ، والشوكولا الإنجليزية ، وربما عسل الملكة أيضاً !

فانفتحت عينا الأستاذ صاحب البيت وزوج المرأة الحامل دهشة ، وأقبل يقول لزميله في توسل :

— أرجوك ! خفّض صوتك ، قد تسمعك امرأتي وهي في البيت ، فتتحرك شهوتها لمثل هذه الأصناف ، ونحن لم نخرج بعد من مسألة الدراق والإجاص ! ولكن ما هو عسل الملكة الذي ذكرتَه ؟ هل هو غير عسل النحل الذي يعرفه الناس ؟

فابتسم زميله ابتسامة ذات مغزى ؟ وقال في صوت يشبه الهمس :

— ماذا أقول لك ؟ تشكو من طلب الدراق والإجّاص ، ثم تسأل عن عسل الملكة الذي لا يعرفه إلا المترفون حين يتعدون الخمسين ؟

*

كان القصد أن ندخل في حديث ننسى فيه الأحزان ، ولكن كيف يُنسى ما نحن فيه ؟

١٩٩٠/٨/١٣

العودة إلى القرية

لي صديق يحضر معنا ، أحياناً ، جلسة الأسبوع . حلـــو الطبيعة ، أُحب مجلسه ، وأسعى إليه ، ولا أكف عن معابثتــــه... وكان نزل حلب ، من بعض قراها البعيدة ، وسكنها . كـــان ، إذا حدثني ، لم يبق فيه عضو ساكن . فأقول له ، حين يتهيأ للحديث :

— أسبل يديك ، وحدثني بلسانك وحده ، فـــإني لا أطيق أن أراك كالجمل الهائج ! متى تتعلم أساليب "أهـــل الحضر"؟

فاليوم زرته . فقال لي ، بعد الديباجة المعهودة :

— كنت أقول لنفسي ، قبل أن تشرفني بزيـــارتك : لابد أن يكون ميزان العدل قائماً في الدنيا ، إذ لا معنـــى لهذه الدنيا إلا بقيام هذا الميزان . كيف يمكن أن تســتمر الحياة مع الظلم والعســف وقــهر أصحــاب الحقــوق ، وإزاحتهم عن حقوقهم ؟ خرجت ، كما تعلم ، مــن بيئـــة صغيرة ، يعرف كل فرد فيها ما له وما عليه . وأعيـــش الآن في محيط كبير تكثر فيه الحيتان ، فأسمع في كـــل

يوم خبراً لا يشرّف " أهل الحضر " الذين تتغنى بذكرهم . والناس حين يسمعون هذه الأخبار، يقول بعضهم لبعض : لابد أن يلقى هؤلاء جزاءهم ، فالمال الحرام لا يثمر ، والظالم يتسلط عليه من هو أظلم منه . وسارق الحقل لابد أن يُسرق حقله؟ فميزان العدل إذن ، في الشرع الذي يفهمه عموم بني الإنسان ، ينبغي أن ينصب في الدنيا ، وينبغي أن يلقى الذين يميلون به جزاءهم . حتى تعود الحياة إلى طبيعتها ، وتستقيم فيها أمور الناس !

قلت أعابثه :

— فأنت إذن لا ترى ما يدعو إلى عقاب الناس في الآخرة ، ما داموا يلقون عقوبتهم في الدنيا ؟ هل تظن أنه يتعين على جميع الناس أن يموتوا أطهاراً ، خرجوا من ذنوبهم كلها ، وطهروا أرواحهم من أدران الجشع والكذب والنفاق والاحتيال والجور على الحقوق الخاصة والحقوق العامة ؟

قال ، وقد استبدت به الفكرة :

— ولكنك على هذا النحو في التفكير ، تجعل الدنيا تغلي بأحقادها وشرورها ، وتشيع فيها القدرة على تنجية الأشرار وظلم الأخيار ، إلى نهاية الحياة !

قلت : نعم ! ولهذا شرّعت الأديان الحدود ، وشرّع الناس القوانين والعقوبات ، وحددنا جزاء كل جريمة .

قال : ولكنهم في رأيك ، يمكن أن يُفلتوا من قيود هذه الشرائع كلها !

قلت : نعم ! ولكننا نفعل ما في الوسع للجم مطامع الناس ، وكبح نزعات الجشع في أنفسهم ، فإن أفلتوا في الدنيا لم يفلتوا من العقاب في الآخرة !

قال ساخراً : فإن كان ظنهم بالآخرة ضعيفاً أو مهتزاً ، فكيف يكونون ؟ ثم إن بعض المجتمعات الإنسانية تنفي هذا التوجه الديني من أساسه ، وتدفعه عن مواطنيها ، فما الذي تفعله ، من بعد ، مع هؤلاء الناس ؟

قلت : لابد إذن من أن تُقويَ فيهم سلطة الضمير ، وتوقظ نوازع الخير في فطرتهم، وتبصّرهم بمواضعهم من حياة الآخرين . ثم لابد ، من ناحية أخرى ، أن تحاول منع التسلط فيهم ، بوجوهه كلها ، وإقامة المساواة بين الناس ، في الحقوق والواجبات .

قال : وهل يكفي هذا في كبت نزوع الناس إلى الشر ، والقضاء على عوامله ؟

قلت : لا ، لا يكفي !

قال : فما البديل إذن ؟

قلت : لا أرى غير تقوية وازع الإيمان بمصيرهم إلى الله بعد الموت ، ومحاسبتهم على ما فعلوا !

قال : ولكن ثبت أيضاً في تاريخ البشرية أن هذا لم يكف في إصلاح الناس . بل إن في تاريخ بعض المؤسسات الدينية نفسها رجالاً جعلوا من مناصبهم فيها ستاراً لأكثر الموبقات إثارة في التاريخ !

قلت : فكيف يكون صلاح الإنسان في رأيك إذن ؟

قال : أرى أنه لا غنى أبداً عن تقويم قواعد الحياة في الدنيا ، في كل ميدان : في السياسة والاقتصاد والاجتماع. ثم لا غنى ، بعد ذلك ، عن تنقية ثقافة الناس وإغنائها بتجارب التاريخ . هذا شأن الإنسان دائما : تهزه عبر الدنيا فوق ما تهزه عقوبات الآخرة . ولهذا قالوا في القديم : إن الله يزع [١] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !

قلت : فإذا كانت الدنيا سائبة ، والناس يجرون فيها على هواهم ، لا يجد بعضهم من يردعه ويزعه فكيف تكون الحال ؟

قال : على مثل الحال التي تراها في "أهل حضرك" بارك الله لك فيهم ، فإني لا أحبهم ولا أريدهم ، ولا أريد أن أعيش إلى جانبهم !

قلت : وما تنوي أن تفعل ؟

قال : أجمع حاجاتي وأعود إلى القرية !

١٩٩٠/٩/١٠

---

١ ــ وزع : منع وكفَّ وزجر .

(٥)

بين السوقين

بين السوقين

يخطئ من يظن أن واقع الحال في سوق الفكر (أعني السوق التي تعنى بالفكر ، على اختلاف مواقعها وألوانها) يختلف كثيراً عن واقع الحال في سوق الهال وما يتفرع عنها .

هم هنا يبيعون الخضار والفواكه والمنتجات الزراعية كما يبيعون هناك الكتب والصحف والمجلات والمنتجات الفكرية ، سواء بسواء . والمقصود بكلمة " البيع " : عملية التبادل التي تتم بين البائع والمشتري . فالبائع يقدّم البضاعة والمشتري يدفع الثمن . وسأحاول أن أرصد هنا بعض نقط الافتراق والالتقاء بين السوقين وما يتفرع عنهما ، ويتصل بهما ، مع التعليل لها في الحالين .

والذي أريد أن أنبه إليه هنا أن الموازنة بين سوق الفكر وسوق الهال لا تحطّ من قدر الأولى أبداً ، ولا ترفع من قدر الثانية . فهما سواء في حفظ الحياة وتنميتها . والخلاف بينهما لا يتعدى المسائل الشكلية ، إذ الحياة في السوقين تحكمها ، في النهاية ، قوانين واحدة . ففي الموازنة بينهما تأصيل لفكرة المساواة بين حاجات الجسد وحاجات الفكر ، ونفي لما درجت عليه بعض الحضارات من ازدراء الجسد وحاجاته ، وتقديم الفكر عليه .

١- ففي سوق الهال يعلّق الباعة أقلامهم على آذانهم ، ويلصقونها بأسماعهم . وفي سوق الفكر يشكلونها في جيوبهم ويلصقونها بصدورهم . ولهذا أسباب : فالصفقات في سوق الهال مكشوفة على الأغلب ، لا تلزمها الأقلام المخبأة في الصدور ، وتعقدها أصوات عالية تملأ الأذن ، فلهذا يلصقون أقلامهم بآذانهم . فأما في سوق الفكر فتتم الصفقات في السر ، وتعقدها أصوات خافتة يدركها الحدس وحده . فلهذا يلصقون أقلامهم بصدورهم ، قريباً جداً من موقع القلب !

٢- والباعة في سوق الهال يديرون دفاترهم من الأعلى إلى الأسفل إذا أغلقوها ، ومن الأسفل إلى الأعلى إذا فتحوها . فأما في سوق الفكر فيفتحونها من اليسار إلى اليمين حين تكون الشمس في الشرق ، ومن اليمين إلى اليسار حين تكون في الغرب . ولهذا أسباب أيضاً : فالطالع في سوق الهال ينزل مرة واحدة في اليوم ، والنازل يطلع مرة واحدة . فأما في سوق الفكر فالتحول يتم مرتين كل يوم ، تبعاً لحركة الشمس ، والتماساً لضوئها ودفئها .

٣- وتدخل سوق الهال فترى الدكاكين في الطريق العريضة . وفي سوق الفكر تراها في الأزقة الصغيرة والحارات المتداخلة ، وتعليل هذا الافتراق سهل : ففي سوق الهال

تكون البضاعة ، على الأغلب ، مكشوفة للعيان ، يمكن أن تضرب يدك فيها إلى باطن الصندوق . فأما في سوق الفكر فالبضاعة تكون أحياناً مستورة أو مغطاة بطبقة من الصياغات الحلوة . فمن الأحوط أن يتم تسويقها في عتمات الأزقة كما يتم تسويق المهربات !

٤ـ ونتم المضاربات في سوق الهال من خلف جلبة السوق وضوضائها ، كما تتم في سوق الفكر من خلف قعقعة الكلام وصرير الأقلام وجلبة الطباعة . والنازل في السوقين تلهيه الحركة المستمرة وظاهر الحياة الجارية . فإذا تجاوز السطح إلى الأعماق انكشف سبب التسوية في السوقين : فالحليف فيهما معاً ينضم إلى الحليف أو يفترق عنه ، تبعاً لمقتضيات المصلحة . فمن ثم يكون حليف اليوم خصم الغد ، وخصم اليوم حليف الغد . ومن هنا تقع جلبة الحركة في السوقين !

٥ـ وتبعا لمقتضيات المصلحة وقوانين السوق أيضاً ، يتم تسويق البضاعة وطرحها في السوقين على نحو واحد . ففي سوق الهال تطرح البضاعة المناسبة في اليوم المناسب ، استجابة لقوانين العرض والطلب ، وتتحكم فيها أحياناً نزعة الاحتكار الرديئة . وفي سوق الفكر أيضا تطرح البضاعة المناسبة في اليوم المناسب ، ويجري تحسينها وتزيينها لتروق المشتري . ثم يحتكر

بعض رجالها الأفكار والمبادئ المعلّبة كما يحتكر أولئك معلبات الأغذية وقناني الزيت وأكياس السكر .

٦ـ على أن الاختلاف الكبير بين السوقين يكمن في أشكال الصراع ، وإن كانت القوانين التي تحكمه واحدة . ففي سوق الهال يقف الخصم ، على الأغلب ، في مواجهة الخصم ، يصاوله وجهاً لوجه ، وأمامهما حقائق السوق وقوانينها . فأما في سوق الفكر فيدور الصراع في الظلام ، ويخضع لقوانين المداورة والمخاتلة ، تبعاً لحجم الثقافة ودور العقل في نصب الفخاخ وحبك الدسائس وتمويه الحفر . فالماشي في هذه السوق ينبغي أن يلتفت شمالاً ، ويلتفت يميناً ، وينظر من أمام ، وينظر من خلف ، ويفحص حجر الطريق . فإذا سلم في نهاية الأمر ، سلم لليوم التالي فحسب !

٧ـ وننتهي ، في الموازنة بين السوقين ، إلى رجال الضابطة التموينية : فهم في سوق الهال وما يتفرع عنها من أسواق التجزئة ، يقظون جداً ، بمقدار ما تسعهم اليقظة في هذه الأيام الصعبة ! لا عبرة ،على الإطلاق ، بالمخالفات الصغيرة في أسعار المنتجات المحلية ، ولا بالمخالفات المتوسطة في تسويق المهربات الغذائية وما يشبهها على اختلاف أشكالها ، ولا بالمخالفات الكبيرة في تسويق مهربات الاستهلاك الترفيهي ، مثل البرادات والغسالات

والجلايات والتلفزيونات والمسجلات والهواتف الجوالة والحديد والخشب . فإذا انتقلنا إلى سوق الفكر لم نجد إلا أثراً ضئيلاً لرجال الضابطة الفكرية . والسبب واضح : الحرص على سلامة الحرية الفكرية ، والحرص على أن يتولى رجال السوق أنفسهم مراقبة منتجاتهم ، ممثلين في من يسمونهم " النقاد " . على أن نقاد هذه السوق مثل رجال الضابطة التموينية تماماً : يقظون بمقدار ما تسعهم اليقظة في هذه الأيام الصعبة . ولاعبرة بتسويق المنتجات الفكرية العزيزة على القلوب ، وتجاهل المنتجات التي لا يتصف أصحابها بالتلطف وحسن الموقع ، إذ هم يأخذون بقول السادة الصوفية : ((إن لله خواص ، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص)) !

٨ـ ومن هنا يجيء التوافق في دور شاهبندر السوقين : فشاهبندر سوق الهال هو كبير رجالها : يصرّف أمورها ، ويفصل في خصوماتها ، ويرقب نشاطها ويوجهه الوجهة " المُرْضية ". وشاهبندر سوق الفكر مثله : يرقب رياح السوق ، ويرصد أنواءها . يأمر برفع الصواري ونشر القلوع أو بإنزالها وطيها . ويدرس حركة الأمواج الظاهرة والخفية ، ويتتبع مواقع الصخور . وقد يكون له مثله أيضاً : صدار من حرير ، وعمامة من كشمير ، وخاتم من عقيق ، وجناح يطير ، في لحظات الروع ،

فوق غمر الطوفان ، كحمامة نوح . ثم هو مثله أيضـــاً : يُدعى في كل وليمة ، ويأكل على كل بســـاط ، ويدخـــل جميع الأعراس ، ويجمع في يديه خيوط الأفكار وزمـــام المبادئ التي تحكم حركة السوق !

١٩٨٨/١/٢٤

بناء الإنسان

تشيع اليوم في حياتنا ظاهرة مفزعة ، أصبحت ، على ضخامة أثرها في حياتنا ، تدخل في أحاديث الناس اليومية ، دون أن تخلف فيهم أثرها المطلوب . فقد أماتتها الألفة ، وخفف من وقعها التكرار .

أدخل بيوت الناس فأسمع أن فلاناً منهم أعفى نفسه من أعباء العمل العلمي ، وانتقل إلى ميادين الحياة الأخرى ، فأصبح يكسب في يوم واحد ما كان يلهث في كسبه شهراً بطوله أو شهرين ! وأسمع أن فلاناً من المدرّسين افتتح لنفسه مكتباً للعقاريات . وأغراه الكسب ، فأصبح يسخر ، أمام زبائن المكتب ، من الشهادات وحامليها ، ويرميهم بالغفلة أو بالسذاجة التي تعني الغفلة ، يقول :

— يا أخي ! سبحان الله ! أنفقت نصف العمر وأنا أحمل الكتب والأقلام ، فماذا جنيت ؟ لا بيت ولا زوج ولا شيء مما أراه الآن من أسباب العيش . كانت الديون تثقلني ويعذبني الإحساس بإشفاق الناس عليّ . وكانت

تقع ، قريباً مني ، دكان رجل قصاب أمّي ، استأجر لنفسه ولداً يكتب له أسماء الزبائن ومقادير اللحوم التي يطلبونها . كنت كلما مررت بدكانه مستخزياً من عجزي عن سداد الدين ، شيعني بنظرة إشفاق كانت أحدّ عليّ من ساطوره الطويل ! ثم إنه أمسك بي يوماً ، فدار بيني وبينه الحوار التالي :

قال : يا أستاذ ! كم يبلغ مرتبك في الشهر ؟

قلت : أربعة آلاف ليرة سورية .

قال : عظيم ! ما رأيك إذن في أن تقضي في دكاني ، كل يوم ، ساعة أو ساعتين ، تنظم لي فيها دفاتر الحساب ، بمرتبك الشهري هذا ، مع ربع كيلو من اللحم مجاناً ، في كل يوم ، فيزيد مرتبك بهذا عن خمسة آلاف ليرة سورية ؟

كان العرض مغرياً . ولكنني شعرت أن الرجل كان في نفسه يسخر من العلم والتعليم . عزّت عليّ نفسي ، فرفضت العرض .

علي أني بعدها أخذت أحدّث نفسي على هذا النحو :

— يا فلان ! كيف تريد أن تتابع حياتك ، وأنت تفقد في كل يوم جزءاً من إيمانك بالقيم " العظيمة " التي لقّنوك إياها في المدارس والجامعة ، دون مقابل ؟ حاول أن تخرج من هذا الطوق المضروب ، وتحرر من نفسك قبل أن يضيع منك كل شيء .

هكذا أغريت بعض أقربائي بالعمل معي ، وافتتحت هذا المكتب الصغير . فحين ألتفتُ الآن إلى الماضي ، أحزن كثيراً على الأيام التي أضعتها في المدارس ! وأشعر أني مدين للقصاب بتقريب اللحظة الفاصلة التي نقلتني إلى الواقع . أرفع الآن يد الهاتف،أحياناً،وأنزلها ، فتنزل في جيبي عشرات الآلاف أو مئاتها ، لا يسأل عنها أحد . وأدخل أحياناً في صفقات تكرّ فيها ملايين الليرات مثل أحجار الطريق . فأقول لنفسي : مساكين هؤلاء الذين يعيشون في أحلام ماضيهم ومُثُله ! إنهم ، على عكس ما يظنون ، يفلسفون العجز حتى يقبلوه ! يعيشون بمنطق ، والناس تعيش بمنطق آخر . أدخل الجامعة فأرى معظم أساتذتها يركضون تحت الأمطار ، من الباب الخارجي ، ليلحقوا بمكاتبهم أو مدرّجاتهم . وأرى أناساً آخرين ، من طلابهم أحياناً كثيرة ، يديرون مقود سياراتهم الأنيقة ويقفون بها أمام المدرّجات ، يترجلون منها ويهزون مفاتيحها في أيديهم ، يريدون أن يقولوا : إنهم هم الذين يستحقون حياتهم ، لأنهم عرفوا أبوابها !

وأعود اليوم إلى الحي الذي كنت أسكنه ، قريباً من جاري القصاب ، فأزحم بسيارتي مدخل الحي ، كأني أنتقم من الماضي كله . فيُهرع إليّ ويترك الناس ينتظرون ، يرونه وهو يتودد إليّ ، ويصيح بالولد أن يسجل ، على عجل ، مقادير اللحوم التي أطلبها ، ويشيعني بعدها بالتحيات والدعوات ! نعم أعرف أن منطقه ، في النهاية ، هو الذي انتصر ، وأني المهزوم في المعركة الصامتة

التي دارت بيننا . ولكن الهزيمة هنا هي التي تعني النصر . هكـــذا أحس اليوم ، فإن الغلبة للحياة في آخر الأمر !

* * *

ما زال في جعبة الرجل كلام كثير من هـــذا الطـــراز ، يتعدى أثره ، في حياتنا ، هذا الجيل إلى الأجيال المقبلة ، حتى لقـد أصبح اليوم يمس مطامحنا في بناء الإنسان .

ولكن ما يعني بناء الإنسان ؟

متى نكفّ عن التعامل مع هذه المفردات الكبيرة ؟

١٩٩٤/١٢/٢٦

بيننا و بينهم

مرةً حضر أحد المستشرقين الألمان درساً من دروس الجامعة ، اتفق أنْ كان أحد طلابنا يلقي فيه محاضرة هيأها لنفسه ، عن الاستشراق والمستشرقين .

كان هذا المستشرق يتقن عدة لغات حية ولغات أخرى شرقية وساميّة . وكان صديقاً من أصدقاء العرب . استزارني في بيته مرة ، وزارني في بيتي مرات ، صحبتْه فيها زوجه المستشرقة ، وكانت تدْرس العربية أيضاً . حضرتْني يوماً ، وأنا أتحدث إليهما ، الطرفة التي رواها الأستاذ أحمد أمين في سيرة حياته ، عن إحدى المدرّسات الإنجليزيات ، كان يعلمها العربية ، ويتلقى على يديها دروساً في الإنجليزية كانت جميلة العينين . فشكتْ إليه يوماً ضيقها بحرف العين في العربية ، إذ كان يستعصي عليها إخراجه من أقصى الحلق ، فقالت ، وهي تحاول أن تخرجه فيحزّ في حلْقها !

– يا أستاذ عينكم تذبحني !

قال أحمد أمين : فقلت في سري :

— وعينكم تذبحني !

ضحكت المستشرقة ، وكانت جميلة العينين أيضاً ، وضحك زوجها . وعقّب يقول في مرح :

— على أن في الألمانية حروفاً يمكن أن تختنقوا أنتم في إخراجها أيضاً !

نعود إلى محاضرة الطالب التي كان يلقيها على زملائه ، عن الاستشراق والمستشرقين ، في حضور المستشرق الصديق وزوجه . فقد نقل فيها ،ما اتسع له الوقت ، أقسى ما وجده في بعض الكتب ، من صفات الاستشراق : التحيّز ، والارتباط بدوائر المخابرات الغربية ، وتسخير المعرفة في مقاصدها الشريرة ، رغبة في إحكام السيطرة على الثروات العربية ، وتخريب ثقتنا في أنفسنا وتراثنا ، والتهوين من دورنا في بناء العالم القديم ، ومن قدراتنا على المشاركة في بناء العالم الحديث أيضاً !

كان الطالب ما يفتأ ، وهو يلقي كلامه ، يرمق المستشرق وزوجه بنظراته الحادة . فأخذت أبتسم ، أريد أن أخفف من حدة الموقف في نفس المستشرق وزوجه ، إذ وجدا نفسيهما ، على حين غرة ، متهميْن !

نظرت في وجه الطالب كأني أريد أن أقول له :

— لا تسرف في القسوة فإنهما ضيف !

ولكن الطالب تحوّل عني إلى أوراقه . وغلبه الإحساس بقوة الحاجة إلى التنفيس ، فلم يسكت حتى استوفى كلامه كله !

لم أعد أذكر ما انتهى إليه الدرس ، وما عقّب به زملاؤه . ولكني أذكر أنهم زادوا الموقف حدّة ، وأضرموا النار في المؤسسة الاستشراقية كلها . فكان لابد أن أذكّرهم بخطر التعميم في الحكم عليها ، وبما حققت لنفسها من النجاح في الدرس والتحقيق . وختمتُ كلمتي قائلاً :

– أستطيع أن أفهم ما صدرتم عنه وما انتهيتم إليه . ولكني أرى أن تترووا في أحكامكم ، وأن تزنوها بموازين ما أنجزته هذه المؤسسة في الميادين المختلفة . ولا تنسوا أننا اليوم في أمس الحاجة إلى صداقات المنصفين منهم ، وفي أتم الغنى عن كسب عداوات جديدة ، تصب مياهها ، آخر الأمر ، في طواحين عدوّنا !

ثم لما خرجنا من المدرّج ، دعوت الصديقين ، وكانا يحسان ببعض الارتباك ، إلى مكتبي . سألت السيد بوبتزين [1] عن رأيه فيما سمع . وكنت هيّأت في نفسي كلاماً أقوله له . ففاجأني برده البسيط الواضح :

– ليس في الموضوع ما يزعج ! وقد أفدتُ كثيراً من سماع المحاضرة ، ومن التعقيب عليها ، إذ أدركتُ مدى الحاجة إلى كتابة تاريخ الحركة الاستشراقية بجملتها . فإن ما قالوه يعود ، في أكثره ، إلى أننا

---

(1)ـ اسم المستشرق .

قصّرنا كثيراً في حق أنفسنا . ثم إنهم على حق في كثير مما قالوه . وهو ما ينبغي أن نقوله نحن في أطراف من تاريخ الحركة أيضاً !

أما زوجه ، فقد ابتسمت لكلام زوجها ، واكتفت بهذا التعليق :

– هم ، في آخر الأمر ، شباب لمستُ لطف استجاباتهم في تعاملي معهم ! ولكنهم مجروحون . ومن الواضح أنهم يحسّون اليوم بمدى تخلفهم عن ماضيهم العظيم ، ويسوؤهم أن ينال الآخرون منه ، ومن حاضرهم أيضاً .

*

كلمة واحدة أريد ألا تغيب عني هنا : ما أشدّ ما نفترق عنهم ! لو كنا في موقفهم ، وسمعنا ما سمعوه ، فكيف كنا نقول ؟ وكيف كنا نفعل ؟

١٩٩٤/٧/١١

عقليات إدارية

حملت أوراقي يوماً ، بعد أن نلت الشـــهادة الإعداديـــة ، فدخلت مبنى الثانوية في حلب ، لأتم تسجيلي في طلابها . لم تكـــن في المدينة يومها إلا ثانوية واحدة كان الناس يسمونها ، في امتيـــاز ملحوظ :(التجهيز الأولى) . أو يسمونها (السلطانية) ، إشـــــارة إلى قيامهـــا في العهـــد العثماني . كنت قادماً من الإعدادية الجديدة (التجهيز الثانية) التي أقاموها في حي بعيد متطرف مـــن أحيـــاء حلب ، ينتهي إلى(سوق الفرّائين)[1] ، كنا نقطـــع إليـــه أســـواق المدينة المزدحمة كلها تقريباً . فنشَم ، في الطريق ، روائح اللحـــم المشوي والمتبلات الساطعة ، وندخل سوق النسوان ، ونسمع نـــدف القطن ، ونحس رطوبة السقوف الحجرية الممتـــــدة علـــى طـــول الطريـــق . على حين كانت (التجهيز الأولى) تقوم فـــي مكانـــها اليوم ، في حي ممتاز من أحياء حلب الجديدة ، بردهاتها الواســـعة وصفوفها المهيبـــــة ، وحدائقـــها وملاعبـــها ، وســـمعة أســـاتذتها ومســـؤوليها . فكنا ، نحن الطلبة ، نحس ، في مجـــال الموازنـــة

---

(١) ــ سوق القطن ، اليوم .

بينهما ، بنوع من الانكسار، كان يحسه ، على الأغلب ، مدرسونا أيضاً .

طالعتْني في صدر الردهة ، بعد أن اجتزت الطريق الحجرية الواسعة التي تحف بها الأشجار على الجانبين ، لائحة بالأوراق الرسمية المطلوبة ، ولافتة تقضي بعرض الأوراق على رئيس الديوان ، في الطابق الأول ، ليقوم بترتيبها ، قبل صعود الدرج ، إلى الطابق الثاني ، حتى يتسلمها المدير في غرفته الداكنة ذات الستائر العالية التي تحملها قضبان النحاس . هكذا وصفوها لي يومذاك . وقالوا أيضاً : المدير رجل حازم ، شديد التدقيق ، بالغ الهيبة ، على رقة عوده . ولكنْ لا تخشَ شيئاً ، فسيستلم منك الأوراق ويعاينها ، ثم يوقّع عليها ، ويطوي المصنف ، ويأمرك بالانصراف !

دخلت على رئيس الديوان أولاً ، فأخذ يحصي الأوراق ويعيد ترتيبها . ثم تناول الصورتين الشمسيتين فشبكهما في أعلى الأوراق ، وناولني المصنف وقال : اصعد إلى المدير في الطابق الثاني ، ولا تنس أن تطرق عليه الباب قبل أن تدخل . كان رئيس الديوان شاباً حلو السمات ، لا يبخل على الطالب ببسمة في اللحظة المناسبة ! فأفرخ رَوعي قليلاً .

صعدت الدرج في خفة وارتياح ، فرأيت باباً واسعاً عليه لوحة سوداء تشير إلى غرفة المدير . طرقت الباب طرقتين خفيفتين، فلم أسمع رداً . انتظرت قليلاً قبل أن أطرقه مرة أخرى ،

فلم أسمع رداً ! أخذت أتلفت حولي فلم أر أحداً . أدرت كُرة البـاب في حذر ، واندسست في فرجته الضيقة .

كانت الغرفة معتمة قليلاً ، تشيع فيها رائحة تبغ خفيفـة . في صدرها مكـتب كبير يجلس ، من ورائه،رجل ضئيـل بـادي النحافة ، معروق الوجه ، أسمر سمرة شديدة ، على رأسه طربوش قصير . تقدمت منه في بطء وأنا أمـد يـدي بمصنـف الأوراق . وانتابني فجأة إحساس بالقسوة لا أعرف سببه . فلما تنـاول الأوراق تراجعتُ قليلاً عن المكتب لأبقي بينه وبيني المسـافةالمناسـبة . نظر في الأوراق وأقرّ ترتيبها على ما يبدو ، وقـارب أن يوقـع عليها . ولكنه ما لبث أن عاد يقلّبها مرة أخرى . ثم مد يـده إلـيّ بالمصنف وقال بلهجة حادة :

ـ الأوراق ناقصة ، عد بها إلى رئيـس الديـوان وقل له يكملها !

كررتُ الدرج مرة أخرى ، نزولاً ، إلى رئيس الديـوان . فلما سمع كلامي ورأى ارتباكتي ، منحني إحدى بسـماته ، وأخـذ يقلّـب الأوراق ويعيد النظر في ترتيبها . ثم قال في استغراب :

ـ الأوراق تامة ، وترتيبها سليم. عد بـها إلـى السيد المدير ، لعله أخطأ ورقة منها.

عدتُ فصعدت الدرج . طرقت الباب ودخلـت . مـددت يدي بمصنف الأوراق وأنا مطرق ، أخفي عجبي مما يقع . أعـاد النظر سريعاً في الأوراق ، ورمقني بنظرة جافة وقال :

- **ما زالت الأوراق ناقصة ! عد بها إلى رئيس الديوان ليكملها لك !**

ملت على الأوراق وسألته في تهيّب :

- **ولكنه يقول : إنها كاملة !**

ارتسم في وجهه معنى من معاني الضيق ، ورمى بالمصنف في يدي وقال :

- **عُدْ بها إليه وقل له يكملها !**

عدت فكررت الدرج نزولاً مرة ثالثة . أعاد رئيس الديوان النظر في الأوراق . دقق في ترتيبها . قال :

- **غريب ! الأوراق كاملة ! عد بها إلى السيد المدير واسأله عن النقص !**

صعدت الدرج هذه المرة وأنا ألهث . فلما رآني أمامه تناول المصنف دون أن يقول شيئاً . قلب الصورتين، وقال في انفعال :

- **قل لرئيس الديوان أن يكتب اسمك عليهما !**

١٩٨٧/١١/٢٢

الرجل ذو العصا الغليظة

في يوم من أيام الربيع ــ تقول إحـــدى حكايـــات الـــهند القديمة المكتوبة للصغار ــ نزل بستاني كان يسكن في ضاحية مـن ضواحي مدينة (ماهدابورا) ، سوق المدينة ، ليبيع فيها خضاره . كان يحمل على رأسه سلّة فيها سبع خيارات . وكان مبتهجاً بالربيع يمنّي نفسه الحصول على ثمن جيد لها .

فعلى باب المدينة استوقفه أحد موظفي الجمرك فقال له :

ــ أنت تعلم أن المحاصيل التي تدخل المدينة يتعيّن على صاحبــها أن يؤدي ضريبة عنها . هات واحدة مـن هذه الخيارات .

وما لبث أن لحق به أحد الحراس فقال له :

ــ أنـــت لا تجهل أنه ينبغي عليك أن تدفع ضريبة الحراسة . هات أيضاً واحدة من هذه الخيارات .

فهكذا ، على طول الطريق إلى الســوق أوقفــوه خمــس مرات أخرى : فمــرة استوقفه رجل كان يحمل على جنبــه ســيفاً مخيفاً ، فطلب واحدة من الخيارات لوزير الداخلية . ومرة اسـتوقفه أحد رجال الشــرطة ، فطلب واحدة أخرى لقائد الشرطة ، بحجـــة

أنه يحميه من اللصوص ! ومرة استوقفه رجال يرتدون ألبسة فخمة ، فطلبوا واحدة للمسؤول عن العدل الذي يحميه من دعاوى المحتالين . وذهبتْ الخيارة السادسة في خدمة الصالح العام !

كانت بقيت خطوات قليلة أمام البستاني ليدخل السوق ، حين لحق به رجل محلّى بالفضة والذهب ، فطلب الخيارة الأخيرة لتوضع على مائدة الملك ! لم ينفع احتجاج البستاني في ثنْي الرجل عن طلبها ، فأعطاه إياها وعاد بسلّته الفارغة يقطع الطريق إلى البيت .

لما انتهى إلى موظف الجمارك وقص عليه قصته ، عنفه الموظف لتفريطه بحقه في الخيارات الست . فعزم البستاني على أن يلجأ ، في الغد ، إلى بعض المسؤولين ليشكو إليه ما وقع له .

لبث أياماً طويلة ينتظر على الأبواب . وسمع كلاماً من الناس أيأسه من العدل . وتقاذفته الوزارات . فلجأ إلى الملك ، ولكن الحراس منعوه من الاقتراب منه .

لم يجد البستاني المسكين مفراً من العودة إلى بيته ليدفن همه في العناية بحقله . وتوقف في الطريق ، مرة أخرى ، عند موظف الجمرك . سمع منه الموظف ما وقع له ثم قال له :

– أحسنتَ بما فعلت ، فإنه لابد من أن تفعل شيئاً يصرف إليك انتباه الملك .

رنّت الكلمة في سمع البستاني ، فعزم على أن يصنع هو نفسه هذا الشيء . اتخذ لنفسه عصا غليظة ، صاغ أحد أصدقائه لها رأساً من الفضة ، نقش عليه شعار الملك . ووقف عند أبرز

طرق المدينــة يعلن للناس ، باسم الدولة ، فــرض ضريبــة يتعــين على كل من ينقل إلى المدينة حاجة مــن الحاجــات ، أن يؤديها : خيارة أو دجاجة أو طير أو وعاء أو حلية . تذمّر الناس ، ولكنهم انصاعوا ، آخر الأمر ، وسدّدوا الضريبة !

سريعاً ما ذاعت شهرة الرجــل ذي العصــا الغليظــة ، واستقطب سخط الناس . ولكن بعض المسؤولين حالفوه وجعلوه في خدمتهم ، وقاسموه ما يجمع من دخل الضريبة ! فــاغتنى واتخــذ لنفســه بيتاً فاخراً . ولكنه لم يحقق ما رمى إليه من لفــت أنظــار الملك ، فضاعف الضريبة مرتين أو ثلاثاً . ثم أعلن عــن فــرض ضريبة على الماء المنقول من الينابيع العامة ، وعلى إشعال النــار في الأفران والمواقد ، وحتى في المصابيح !

واستمر البستاني ذو العصا الغليظة يتفنــن فــي فــرض الضرائب ، يريد أن يهز ضمائر الناس ويثير احتجاجهم ، فيقــع ، على أيديهم ، الحدَث الضخم الذي يلفت إليه نظــر الملــك ، دون جدوى .

ثم رأى الملك يوماً أن يجوس طــرق المدينــة ليمتّــع ناظريه برؤيــة دلائل السعادة في وجوه الناس ، بعيداً من المظاهر الرسمية ! فلما وصل إلى الأحياء الفقيرة سمع صراخاً مــن أحــد الأكواخ . فحين استدعى أهله وسألهم شكوا إليه ثقل الضرائب التي يفرضهــا عليهم ، باسم الحكومة ، الرجل ذو العصا الغليظة .

لم يجد الملك بداً من أن يتصدى لحمــل التبعـــة ، فــأبعد المرتشين وجرّدهم من أموالهم • واستدعى البستاني إليه فقصّ عليه القصة كلها ، وما رمى إليه ، في آخر الأمر ، من لفت نظر الملـــك إلى ما يجري في مملكته .

تقول الحكاية : فانصلحت الأمور بعدها . واتخذ الملك من البستاني المسؤولَ الأول في المملكة .

وهكذا انتهت الحكاية بالسرور والحبور ، وقطـــع دابـــر الشرور !

١٩٩٣/١١/٢٢

موعظة هذا الزمان

في هذا البحران الذي نعيش فيه تطيب كلمات السيد المسيح في " موعظة الجبل " التي خاطب فيها جموع المؤمنين به على جبل الزيتون : " طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للمحزونين لأنهم يتعزَّون . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض . طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ لأنهم يشبعون . طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون . طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون . طوبى للمطرودين من أجل البِرّ لأن لهم ملكوت السموات ".

قرأتها في ليلة شاتية أرقت فيها أرقاً عظيماً ، بعد أن طفت بإذاعات العالم ، وسمعت أخبار المجاعات والفتن والمظاهرات والحروب . ما أدري بعدها كيف اختلطت الأشياء في نفسي . غامت عيناي من شدة التعب ، فما عدت أتبين الحروف ، حتى رأيتني في برية واسعة يقوم فيها تل صغير يشبه أن يكون جبلاً كئيباً تقف فيه شجيرة عارية وحيدة . قلت في نفسي وأنا أنظر إليها :

– ما ينبغي أن تكون هذه شجرة الزيتون المباركة !

ثم علت الأصوات من حولي فجأة ، وامتلأ الجبل بالناس . رأيتهم يحملون في أيديهم عصيّاً يتوكؤون عليها ، وقد أداروا على رؤوسهم مناديل مختلفة الألوان سترت جباههم ، فبدوا كالرسوم المفزعة التي نراها في بعض الكتب المصورة . وبدوا متعبين ، مسحوقي النظرات ، يتلفتون من حولهم كأنهم ينتظرون شيئاً . وما لبثوا أن انشقت صفوفهم وطلع منهم رجل جهم الوجه ضخم طويل القامة ، تتهدل على جبينه خصل من شعره الطويل ، يرتدي مِسْحاً خشناً يُلقي بعض أطرافه على إحدى كتفيه ، ويستند إلى عصا طويلة مدبّبة ، كان يرفعها أحياناً فتلتوي في يده كالأفعى . سألت نفسي وأنا أتطلع فيه : أليس ينبغي أن يكون المسيح أسمح وجهاً وألطف عوداً ؟ أم لعله موسى صاحب العصا والأفاعي ؟ ولكن موسى لم يكن ، في ظني ، يرتدي المسوح ، فمن يكون إذن ؟

ثم رأيتني أزحف إليه مع الناس. ورأيت في يدي عصا ما أعرف كيف تلقفتُها ، فركزتها على الأرض حين وقف الناس ، وأرحتُ عليها يديّ كلتيهما ، وأخذت أتأمله في صمت : كانت نظراته حادة وملامحه قاسية . وكان شعره الأحمر الطويل المنسدل على كتفيه يتطاير في كل اتجاه كما يتطاير الشرر ! قلت في نفسي ، وأنا أتلفت وسط الجموع الصامتة : هو إذن نبي من أنبياء هذا الزمان السيئ ، لا يوحي بالثقة ، ولا يستريح الإنسان إليه !

فلما رأى الجموع الصامتة تشخص إليه بأبصارها ، استند إلى جذع الشجرة العارية ، فمالت الشجرة حتى أوشكت أن تخرج من جذورها ! وهبّتْ فجأة ريح عاصفة أثارت سِتراً كثيفاً من الغبار حجبه عن الأنظار . فلما هدأتْ بقي منها صفير يملأ الآذان ، يهدأ حيناً ويثور حيناً . وتحرك الرجل الضخم فرمى الجموع بنظرة عميقة ، ثم فتح فاه وقال :

– " طوبى للشرفاء لأنهم لا يرثون ما يثقل خطوهم طوبى للضعفاء لأنهم يستريحون بالموت " !

علا هنا صفير الريح ، فتقطعت الجمل ، وغابت كلمات كثيرة لم يبق منها إلا قوله :

– " طوبى للطرش لأنهم لا يسمعون ! طوبى للعمي لأنهم لا يبصرون ! الحقَّ الحقَّ أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ، لن تستريحوا حتى تجف دماؤكم وتذهب أنفسكم عليها حسرات " !

علا هنا صفير طويل ذهب بأكثر الكلام أيضاً . ثم سكن قليلاً ، فسمعته يقول :

– " سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، ولكني أقول لكم : لا تصدّقوا ، فعين للغمز وعين للخزْر ، وسن للبلع وسن للقلع . فمن ضربك

على خدك الأيمن ، فحول له خدك الأيسر إن كانت عينــه للغمز ، وإن كانت عينه للخرْز ، فلا تبال أن تضربه على الخدين " !

هبت هنا ريح شديدة كادت أن تقتلع التل . ونفذ إليّ مــن خلالها كلام لم أتبينه . ثم سمعته يقول :

ــ " .. فصلّوا أنتم اليوم هكذا : أبانا الــذي فــي السموات ! ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض ، خبزَنا كفافنا أعطنا ، فمن يفوز اليوم ــ تباركتَ ــ بخبز الكفاف ! "

واشتدت الريح هنا ، فغاب الرجل عن الأنظار . ثــم لــم يلبث أن رأيته وقد أدار ظهره إلى الشجرة ، وبدا شديد الــهياج لا يكاد يعرف ما يقول . ثم رفع كفه فجأة وباعد ما بين أصابعــها ، ودفعها في وجوه الناس وهو يقول :

" خذوا أيها المساكين بالروح ، فهذا أجدى عليكــم مــن الموعظة وطول الكلام " !

*

فتحت عيني بعدها فوجدت الكون تشمله برودة قاسية !

١٩٨٩/٨/٢٧

أيوب العربي

[" أيوب العربي " غير " أيوب الكتب المقدسة ". وهـــو مثله : رجل صالح . كان الرب أعطاه المال والبنين والبنـــــات ، ورزقه الأرض والماشية ، ومتّعه براحة البال ونعمـــة الإيمـــان . فتحدى الشيطانُ إرادةَ الرب فيه ، فقبـل تحديـــه ، وأذن لـــه أن يمتحن صبره وإيمانه ، فسلط عليه ضروباً من البليات . ..]

* * *

أيوب "وهو يستقبل السماء " : **أحمدك يا رب ! أعطيتنـــي الدار الواسعةوالرزق الوفير ، وسبعة من البنين وثلاثـــاً من البنات . نعمة لا أحصيها ولا أقدر على شكرها .**

الشيطان : **أسرفت في الشكر يا أيوب ! فقـــد أصبحـتَ وأهلك مســتهدَفين في الأرض، تضربك ريـــاح العـــالم الأربع ، ويتقاذفك الناس من كل فج .**

أيوب : لي دُور أرحل إليها فـي الشـدائد . ولـي أولاد يحمون شـيخوختي ، وزوج صالـحة تؤنس وحدتـي . ثم إني ، بحمد الله ، موفور العافية واسع الرزق .

الشيطان : فقد علمتَ أن دُورك يحاصرهـا الطوفـان : دارك في الشمال تضربهـا الرياح العاتية ، ودارك فـي الجنوب تنتزع منك ، ودارك في الشرق تتهددها الأطماع ، ودارك في الغرب ما تنفك غارقـة فـي الـدم ، وأنـت محصور مقهور ، يترصدك في أرضـك عـدو مـاكر ، مخاتل ، مسنون الناب ، مجموع الرأي ، خبير مجرب ...

أيوب : أولادي كثـيرون.فـي الغـد يسـتردون الأرض ويعمرونها ، وينشرون فيها ألوية المحبـة ، ويقضـون على الأطماع ، ويتصدون للمظالم .

الشيطان : ما أبأسك يا أيوب ! فأولادك الذين تتكل عليهم دبّت بينهم الشحناء . أنا أعرفهم ، إذ طالما شـغلوني بإحكـام الوقيعة بينهم ، وأطاروا النوم من عيني كـثرة تشاكيهم . صدقني يا أيوب : أنشغل بالدنيا وأهلها ساعة واحدة ، وأنشغل ببنيك وحدهم ثلاثاً وعشرين ! ما أكـاد أستريح حتى يناديني واحد منهم فألبّيه . ضـاق صـدري وفرغت جعبتي . ولولا أنهم أخـذوا يسـابقونني فـي ابتكار أساليب الشقاق لأيأسوني من نفسي ، وفضحونـي في العالـمين ! ولكن دعنا من هذا الآن ، هل تعلـم أن

ثروتك التي تركن إليها في الملمات ، يبددها أولادك على موائد العبث ، وأن مواشيك جفت ضروعها ، وأصدقاءك قاربوا أن يتركوك ؟

أيوب " في إصرار " : المال كثير . أرضي وفيرة الخيرات، جاريةالأرزاق . وأولادي لابد أن يصحوا غداً . وأصدقاؤنا لابد يعلمون ما نحن فيه !

الشيطان : المال إلى نفاد . وبنوك سادرون في الغيّ. وللصداقة حدود تبدأ بعدها حدود المصلحة . وأنت شيخ كبير لا أمل لك في نفسك ، ولا تقوى على مواجهة الأعاصير التي تلوح نُذُرها في الأفق . أنظر ألا ترى بعينيك احمرار السماء من خلفك ؟

أيوب : ولكن الله لا يتخلى عني . سيرسل إليّ ، لابد ، من يقود سفينتي إلى بر النجاة !

الشيطان "وهو يهز رأسه في أسىً " : يا مسكين ! تمزقت القلوع ، وانكسرت الدفة ، فما يفعل الربان ؟

أيوب : فإني قادر على أن أضرب الموج بساعدي ، وأغالب التيار،وأخرج من هذه الأعاصير .

الشيطان : ولكن يا أيوب ! هدّتك الأمراض . وسيهبط عليك الليل قبل أن تبلغ الشاطئ ، وتجتمع حولك أسماك البحار وحيتانها ، ويمتلئ سطح المياه بهيكل السفينة المتناثر !

أيوب "وقد جمع يده وشدّ عليها": فلا أيأس من رحمة الله ! أركب خشبة أظل أتمسك بها حتى أبلغ الشاطئ .

الشيطان : فستجد من ينتظرك على الشاطئ ليدفع بخشبتك إلى عُرض البحر من جديد . نسيتَ أن عدوك بالمرصاد ، وأنه لن يقبل أن يُفلتك قبل أن يراك استويتَ مع الموج ، وأن خلقاً لا يحصى عددهم ينتظرون أن يرثوك ؟

أيوب "وقد ضاقت نفسه ورفع بصره إلى السماء ": وإذن يا رب ! لم يبق في هذا الظلام القاتم قبَس . أنزل عليّ رحمتك ، وامنحني القدرة على الثبات والصبر .

الشيطان : يا أيوب ! اترك الله يرعى ملكوته الكبير ، فقد استأثر أولادك برحمته كلها !

أيوب " وقد امتلأت عيناه بالدموع ": فما السبيل إذن إلى الخلاص ؟

الشيطان : أن تيأس مما أنت فيه ، وتجدّف باسم الرب الذي نسيك !

* * *

" في الليل ، تمدد أيوب العربي علـــى الأرض الفــلاة ، وشخص بعينيه إلى السماء وقال " :

ـــ يا رب ! تبارك اسمك ! أيٌّ خطيئة ارتكبـــت ؟ شعائري أديتها ، ضرائبي دفعتها ، ديوني ســدّدتُها ، قومي أحببتهم ، رؤسائي أطعتهم . لــمَ ســددْتَ فــي وجهي أبواب الخلاص ؟

في نومه جاءه طيف من نور ، فصاح فيه :

ـــ قم يا أيوب ! فقد سمع الله شكاتك . ستجري من حولك سيول من الدمع ، وتفيض بحــور مــن الــدم ، فاغتسلْ بالدمع وتطهَّرْ بالــدم . اضرب بقبضتك الريــح ، واطوِ قلوع اليأس ، واجمعْ بنيك . اجمعْ بنيك . اجمــعْ بنيك . فمن ها هنا يا أيوب الصابر المتألم تُشرع أبــواب الخلاص !

١٩٧٧/٨/٢١

حوار بين الأب وولده

الولد : **سمعت اليوم من أستاذ التاريخ كلاماً جميلاً جداً .**

الأب : **ما الذي سمعت ؟**

الولد : **دخل الصف وتحت إبطه رزمة من الكتب ، وقال :**
سألني أحد زملائكم في الدرس الماضي :
من هو العربي المثالي في رأيك ؟ أريد اليوم أن أرد على هذا السؤال .

الأب : **نعم !**

الولد : **قال الأستاذ : العربي المثالي ، في رأيـــي ، هــو المؤمن بانتسابه إلى الأمة العربية لساناً وجَناناً .**

فقاطعه الأب : **وما الجَنان ؟**

الولد : **قال الأستاذ : هو القلب .**

الأب : **صحيح ، وبعد ؟**

الولد متابعاً : **والمعتزّ بتاريخها وتراثها ومَناقبها .**

قاطعه الأب مرة أخرى : **وما المناقب ؟**

الولد : قال الأستاذ : هي قِيَمها التي تَدين بها ، وتقاليدها ، وصفاتها الخُلُقية كالكرم والشجاعة وإباء الضيم وغوث الملهوف .

الأب : حسناً ، وبعد ؟

الولد متابعاً : والغَيور على مصالحها ، والمرتبط بقضاياها ، والحريص على مستقبلها .

الأب : من السهل تحديد المصالح . ولكن : ما القضايا ؟

الولد : حدّدها الأستاذ في ثلاث كلمات : الوحدة والحرية والاشتراكية .

الأب : فما الوحدة ؟

الولد : وحدة الأمة العربية شعباً وأرضاً.

الأب : والحرية ؟

الولد : حرية الفرد العربي في الداخل ، وحرية الشعب العربي في الخارج : أي حرية الفكر والقول والمعتقَد ، والتخلص من كل سيطرة أجنبية سافرة أو مقنعة ، بما يمكّنها من القدرة على اتخاذ كل قرار تراه يحفظ حقوقها ومصالحها ، وتنفيذه .

الأب : وما الاشتراكية ؟

الولد : بناء الحياة العربية على أسس الكفاية والعدل ، بحيث ينتفي الظلم والاستغلال ، وتُقتَسم الخيرات ، ويكون لكل فرد بمقدار عمله ، في حدود قدرته .

الأب : وما الخيرات في رأي الأستاذ ؟

الولد : هي جِماع ثروات الأمة العربية ، الظاهرة والمدفونة في الأرض والإنسان .

الأب : ثروات الأرض معروفة ، فما ثروة الإنسان ؟

الولد : الخبرة والعلم والإبداع ، إضافةً إلى الإخلاص في القول والعمل .

الأب : وإذن فما دور الثروات التي يملكها بعض الناس ؟

الولد : يقول الأستاذ هي ثروات ينبغي أن تُستثمر لخير المجتمع العربي كله ، إذ هي في الأصل نمت فيه ، ونمت منه .

الأب : هذا كل ما قال الأستاذ ؟

الولد : أظنه قال كلاماً عن المصير المشترك ، وارتباط مصير العربي به حيث يكون ، في أيّ أرض.

الأب : هذا كله كلام جميل كما قلت ، فما رأي زملائك فيه ؟

الولد : كانوا معجَبين به . ولكن واحداً منهم ، كثير الشغْب في الدروس ، كثير الاعتراض على الأساتذة ، نهض في نهاية الكلام يقول للأستاذ : يا أستاذ ! هذا في نظرك العربي المثالي ، فمن يكون في نظرك العربي غير المثالي ؟

قال الأستاذ في حيرة : **هو الذي لا يَعي معاني هذا الانتماء !**

فسأله الطالب حينذاك : **لكنّ عرباً كثيرين يا أستاذ يقولون مثل هذا الكلام ، وهم على وعْي بحقيقة انتمائهم ، فهل هم جميعاً مثاليون ؟**

قال الأستاذ : **اعتقد أنهم كذلك .**

قال الطالب : **ولكنهم يا أستاذ يصيرون في ميدان العمل والتطبيق أناساً آخرين ! ما أعذب كلامهم حينذاك وما أمرّ أفعالهم !**

قال الأستاذ : **تعني أن فجوة تفصل بين ما يقولون وما يفعلون !**

قال الطالب : **كبيرة جداً يا أستاذ!**

قال الأستاذ : **فكيف تسميهم إذن ؟**

قال الطالب : **هم عرب الواقع يا أستاذ ! العرب الذين تصفهم هم عرب الكتب لا عرب الواقع الذي نعرفه . وإنما سألناك عن العربي المثالي في الواقع الذي نعرفه . فأما العربي المثالي الذي وصفتَ فقد ضاع عنا وجهه ، ولهذا سألناك عنه.**

قال الأب لولده في آخر الحوار : **يا ولدي ! كلام أستاذك جميل كما قلت ، ولكن الأجمل منه اعتراض زميلك المشاغب !**

١٩٩٠/٨/٢٠

(٦)

من طرف الحياة

بعض طُرَف المهنة

(١)

تقع في حياة المعلمين ، في المدارس والجامعـــات علـــى السواء ، طُرَف كثيرة ، تكون أحياناً سبباً في الترويح عن النفـس ، والتخفيف من يبوسة بعض الموضوعات المطروحة ، يقرّب بينـــهم وبين طلابهم ، وينزع عن الدرس طابع التعليـــم ، فيجعلـــه أشـــبه بصحبـــة الأصدقاء الخالية من الكلفة . ولو ســـرى فـــي العمليـــة التربوية مثل هذا الروح اللطيف ، رقّت وتموّجت .

ومهما يفعل المربون في صياغة النظريات ، لنقْل هـــذه الصلة التربوية من حد التقيد برسومها وشكلياتها ، إلى حد الســـمو بمعانيها إلى الأفق الإنساني الذي ينبغي أن ترتقي إليه الصلة بيـــن الأجيال السابقة والأجيال اللاحقة ، فلن يستطيعوا أن يبلغوا منها مـــا تبلغه الرحلة المشتركة مثلاً ، أو الحديث الصريح ، أو الإقدام على اجتياز العتبات التقليدية التي تفصل بين الأجيال .

كنا نرحل مع طلبتنا إلى بصرى وشلالات تل شـــهاب أو قلعة شيزر أو حمامات الحمـــة ، ثم نعود ، فنراهم ، فـــي اليـــوم

التالي ، ألطف إدراكاً وأكثر وعياً لمعاني الصلة التي تشدهم إلينا ، وأعمق وداً وأجمل رداً . وقد تنحلّ ، خلال هذه المداخلات الحارة ، عُقَد استحكمت على مقاعد الدرس المرصوصة في المدرجات . فقد يحدث أن يسيء الطالب الظن بأستاذه إذ يراه فيها بعيداً منه ، على منبر الأستاذية ، في آخر درجات السلم ، جهماً صارماً حريصاً على الموضوعية . فإذا اقترب منه وجده مثله : يضحك ويمزح ويتألم ويتأثر بالأشياء وينفعل لها . فتذوب الشكوك ، ويصير ما بينهما أقرب إلى ما يكون بين الولد وأبيه ، أو الأخ الكبير وأخيه الصغير . ولهذا المعني كان طاغور ، شاعر الهند ، أنشأ مدرسته التي سماها دار السلام (شانتينيكيتان) ، في قلب الغابة ، وأطلق الأطفال بين أشجارها ، يتعلمون وهم يلعبون ، ليذوقوا فرح المعرفة .

قريب مما يقع في الرحلات يقع في الدروس والمحاضرات أحياناً . ويتعلق ، مثله ، برغبة الأستاذ في استشعار حلاوات المواقف العارضة ، وتلوينها ، قبل أن تميع .

قرأت مرة لطلابي ، في مراحل التدريس الأولى في الثانويات ، نص أبي فراس الحمداني الذي يناجي فيه ، وهو أسير في ديار الروم ، حمامة سمعها تنوح قريباً منه :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة :

أيا جارتا لو تعلمين بحالي !

واستفضت في تصوير ما تمثله الحمامة في خواطر الشعراء العرب من صور الوداعة والوفاء ورهافة التكوين والحزن الدائم ، حتى زعموا في أساطيرهم التي تكشف عن طباعهم ، أنها تقضي عمرها تبكي أليفها الذي مات في غابر الزمان ، وتنوح عليه أبداً باسمه " الهديل" ، فسموا صوتها به . وذكرتُ لهم أبا العلاء شاعر المعرة الأعمى ، صاحب أعمق الأحزان في الشعر العربي ، وأصدقها وأخصبها ، وما قاله للحمامة وهو يدعوها إلى أن تشاطره أحزانه :

أبنات الهديل ! أسْعِدن[1] أو عِدْنَ كثير الهموم بالإسعاد

آه ! لله درّكنّ فأنتنّ اللواتي تُحسنّ حفظ الوداد !

وقلت ، وأنا في هذه الغمرة من أحزان الشعراء التي لا تنتهي :

— ويبدو أن لكل شاعر حمامته ...

فما سمعوا هذه الجملة حتى نسوا ما قبلها ، وكانوا بلغوا الغاية من الإحساس بالجو المشحون بالحزن ، واحتاجوا إلى الترويح . فاستدارت أعينهم ، وبدأت تلمع فيها ضحكات مكتومة راح بعضهم يداريها وهم ينظرون إليّ . أدركت أنهم خرجوا بالحمامة إلى معناها الشائع عند الأمهات والأطفال . فوقفتُ عن الكلام ، وصحتُ فيهم أريد أن أستدرجهم إلى الضحك والترويح :

— يا خبثاء !

١٩٨٧/١٠/٤

---

[1] ــ مشاطرة الحزين البكاء

(٢)

ومن الأفكار التي يلزم أن تخطر على بال العاملين في مؤسسات التربية والتعليم ، على اختلاف مستوياتها ، أن ينشئوا معرضاً صغيراً يجمعون فيه نماذج من وسائل الغش في الامتحانات ، يكون تابعاً لهذه المؤسسات ، يعرضون فيه أعجب ما تفتقت عنه أذهان الطلبة من صور المخادعة وأساليب الاحتيال على المراقبين والمدققين جميعاً . وتكون لهذا المعرض فوائد كثيرة لأطراف العملية التربوية على اختلاف مواقعهم : فأما المدرسون والمراقبون فتزداد خبرتهم بالطرق التي يمكن أن تدخل فيها الغفلة عليهم ، ولو أن غفلتهم في الحياة لا تحتاج إلى دليل ! وأما الطلبة فتنصقل أذهانهم ويزدادون إبداعاً وتفنناً في عرض المبتكرات والمكتشفات و" تحديثها " أيضاً !

وقد أتيح لي ، بعد الخبرة الطويلة ، أن أرى من وسائل الغش في الامتحانات ، ما يصعب حصره الآن . رأيت منها التقليدي الذي شاع وانكشف ، مثل البطاقات المشدودة إلى الساعد (وإلى الساق أيضاً !) بخيط من المطاط ، يشدها الطالب أو الطالبة ، فيستمليان منها ، ثم يتركانها ، فيشدها الخيط ، فتختفي تحت اللباس . والمناديل الصغيرة التي يحملها الطالب في يده يتكمم بها ، يُظهر أنه مصاب بالرشح ، ويحرص ، لنبل نفسه ، على ألا

ينقل العدوى إلى زملائه ! وجلود المعاجم التي يسمح بإدخالها في بعض المواد ، والأوراق التي تلتف على أقلام الحبر المكسورة تحفظ أصابع الطالب من التلوث ! وأقفية المرايا الصغيرة المستورة التي تحملها الطالبة لتسوي شعرها فيها وقت الحاجة !

على أن القدرة على إبداع وسائل جديدة لا تنتهي . عرضوا علينا يوماً ، في أحد المجالس الرسمية في الجامعة ، وثيقة الجرم التي ضبطت مع إحدى الطالبات ، فكانت المنديل الذي تربط به رأسها (الإيشارب) ، وقد طرّزتْه الطالبة بمقرر الكتاب من مبدئه إلى منتهاه ! وتفننتْ في كتابته تفنناً بالغ الروعة ، فكان آية من الآيات في تحبيره وألوانه وهندسة خطوطه . فلو أن الطالبة عرضته على أحد مبتكري الأزياء ، لاشتراه منها بما كان يغنيها عن الدرس والعلم !

سألت نفسي وأنا أتأمله : لو أن الطالبة بذلت نصف هذا المجهود في استيعاب الكتاب لفازت في الامتحان . ولكنها ، فيما يبدو ، نزعة " الفن " التي تركب " الموهوبين " في ساعات " نزوعهم الفني " !

١٩٨٧/١٢/٢٧

أول الحكاية

لما عزمت على السفر إلى الجزائر ، قبل ما يزيـد عـن ثلاثين عاماً ، لأعمل في إحدى جامعاتها ، سألني أحد الأصدقاء :

ـــ استحضرتُ رخصة لقيادة السيارة ؟

قلت : **لا**

قال : **وهل تحسن قيادتها ؟**

قلت : **لا**

قال : **وما تفعل إذن والجامعة التي يُنتظر أن تكون فيها ، تبعد أكثر من عشرة كيلو مترات عن البلد ؟**

كان الوقت قد ضاق كثيراً .

وكانت قيادة السيارة ، بالنسبة إليّ ، أمـراً مـا يصـدق القارئ مبلغ هَوْله . كان يتعين عليّ أن أدرس عمل السيارة دراسة نظرية قبل أن أجلس وراء مقودها ، فإني ، مثل أصحاب الدراسات النظرية ، تعودتُ ألا أحسن عملاً لا تتضح مبادئه النظريـة فـي ذهني اتضاحاً كافياً أستعين به على التطبيـق . وكنـت أسـمع أن أصحاب الدراسات النظرية هم أكثر الناس استعصاءً على استيعاب ضروب النشاط العملي واليدوي . فهذا جانب من قدراتهم عطّلوه أو

كادوا أن يعطلوه . فهم لذلك يتعذبون به ويعذبون مدرّبيـــهم . وقـــد سمعتُ يوماً أحد أصحاب مكاتب تعليم قيادة السيارات يقول :

ــ صدقْـــني يا أســـتاذ ! المتعلمـــون والأســـاتذة يعذبوننا كثيراً ، فالواحد منهم يستغرق وقتاً في التعليـــم يكفي لثلاثة ! فإذا جمعتَ إلى هذا التقـــدم فـــي الســـن ، أصبح تعليمهم قضية القضايا ! ثم هم يقودون الســـيارة ، من بعد ، قيادة ركيكة إلى آخر أيام العمر !

هذا إذن تفسير ما كنت أحس به ، وأنا أنظر إلى أصدقائي ممن يحسنون قيادة الســـيارات . كانوا ، في نظـــــري ، يحققـــون خارقة من الخوارق ! ثم إني كنت تقدمت فـــي الســـن ، ولا أكـــاد أمارس من ضروب الرياضات إلا المشي . فردود الفعل لديّ لـــــم تعد مرنة .

فاتحتُ صديقاً أثق به ، فيما أنويه من تعلم القيادة ، قبـــــل سفري ، والحصول على رخصتها ، فقاطعني في جِدّ :

ــ اسمع ! كنت دائماً أقول : ثلاثة لا أصـــــدق أن أراهم وراء مقود السيارة : أنا وأنت وفلان من أصدقائنا !

وأردف يعلل : **لأننا ما أكثر ما نسرح ونحن في مقاعدنا !**

هي إذن قضية بحق ، كما قال صاحب المكتـــب . ولــــها حدود وأبعاد ، ولابد فيها من الإذعان للواقع .

قنعت بما وصلت إليه ، وسافرتُ إلى الجزائر ، فـــالتحقت بجامعة وهران البعيدة ، وأخذتُ أروض نفسي على الرضــــا بمـــا

أعاني من عذاب الخضوع لنظام المواصلات العامة . كنـت أرى طلابي يستقلّون سياراتهم الخاصة ، خفافاً لطافاً ، فيدركني إحساس بالأسى لا أعرف كيف أداريه : فهذه راحة ما أشدّ ما يتمناها أستاذهم لنفسه !

في الطريق إلى المُدَرَّج ، وجدتُني أشرح لأحد طلبتي ، حكايتي : كيف يتاح لي أن أتعلم قيادة السيارة ! نظر الطالب في وجهي ، كأنه ينظر في وجه أشد الناس سذاجة ، وقال :

– ولكنها ، يا أستاذ ، مسألة سهلة ، ومكاتب التعليم لدينا مجهزة تجهيزاً خاصاً يسهّل تعلّم القيادة ، ويحدّ من أخطارها !

فمنذ صباح اليوم التالي بكرتُ إلى أحد المكاتب . كان صاحبه (حميدو) شاباً أنيقاً ، ملتمع العينين ، رشيقاً ، يرتدي معطفاً داكناً ، يرفع ياقته على نحو خاص . كان يركب إلى جانبي ويسند مرفقه إلى الباب في أُبّهة ملحوظة ، ويشير إليّ بيده الأخرى ، فيبدو كما لو كان يحرك عصا الماريشالية !

كنت خائفاً أحسب حساباً لكل شيء . وكنت أتغاضى عما يبدو في لهجته من ضيق بي أخذ يتحول ، مع الأيام ، إلى سوء المعاملة . كنت دائماً أسأله :

– ولكن اشرح لي أولاً : كيف تعمل السيارة !

فيصيح بالفرنسية في نزق :

- **هذا لا يفيد ! المسألة كلها أن تجيد بعض الحركات حتى تقوم بها بصورة آلية ، وتتنبه من ورائها إلى الطريق . ما لك ودروس الميكانيك !**

ما تغادرني بعدها ذكرى اليوم الذي حُدِّد لامتحاننا . كان معلمي ، فيما بدا لي ، يائساً من نجاحي ، ولكنه يريد أن يتخلص مني على أي وجه !

ففي صبيحة هذا اليوم المشهود نهضت مبكراً ، فقمت ، على عادتي منذ بدأت دروس التعليم ، ببعض التمارين الرياضية أريد أن أزيد من مرونة الحركة ، وأخفف من يبوسة العضلات . فلما رأتني ابنتي الصغيرة على هذه الحال ، أيقظتْ أمها . وكنت وصلت في تأدية التمرين إلى أن أضع رأسي على الأرض ! رفعتُ بصري فرأيتهما تتابعان حركتي بعينين مملوءتين استغراباً .

قالت الأم وهي تغرق في الضحك :

- **ما شاء الله ! أحسبك تكون نجم المباراة اليوم !**

لن أطيل . انخلع قلبي وأنا أرى ساحة الفحص ، وقد اصطف رجال الشرطة على أطرافها . ووقف الفاحص ، وكنت أسمع عن قسوته الأعاجيب ، في وسطها ، يصدر أوامره قبل أن يبدأ الفحص ، والناس يتقاطرون من كل صوب .

صيح باسمي على حين غفلة ، لغياب بعض من كان يتقدمني ، فهرولتُ وأنا أكاد لا أعي شيئاً ، فقد أحسست أن ركبتيّ تصطفقان . أشار إليّ الفاحص ذو الوجه الداكن والملامح

القاسية ، ففتحتُ باب السيارة الصغيرة التي تلقيت التدريبات عليها ، واندسستُ فيها .

كان عليّ أن أبدأ السير إليه وهو ينظر إليّ يتفحص حركاتي . حتى إذا حاذيته ورضي عني ركب إلى جانبي ليتابع مراحل الفحص . فوالله لقد أُنسيت كل شيء ! ونظرتُ إلى اللوحة في السيارة كأني أراها لأول مرة ! وكنت رتبت الحركات التي يلزم أن أقوم بها ، في ذهني ، واستعدتها عشرات المرات ، منذ لمسة المفتاح إلى لحظة الانطلاق ، فكأني ما أعرف من أين أبدأ ! ثم فتح الله عليّ فأدرت المفتاح ، وضغطت بقدمي على دواسة الوقود ، ورفعت قدمي الأخرى ، وقد أحسستها ترتجف ، شيئاً فشيئاً ، فاندفعت السيارة اندفاعة عصبية مرتبكة. وهدر صوت المحرك فهزّ الساحة كلها . ثم يبدو أني نسيت أن أحرك يد المؤشر الكهربائي ، ونسيت أيضاً أن أتطلع في المرآة قبل الانطلاق . فما كدت أحاذي الفاحص ، وأنا أسمع ضربات قلبي بأذني ، حتى انحنى لي على الشباك ، فناولني جواز السفر ، وقال في فتور :

– خطرة أخرى يا شيخ ! في المرة القادمة تطلّع في المرآة ، ولا تنس المؤشر!

ولم يجد معلمي (حميدو) ما يقوله ، حين أقبلتُ عليه ، غير أن يرفع في وجهي يديه وينفضهما في عنف ، كأنه يقول : انتهى كل شيء بيننا الآن !

ولكن الحكاية لم تنته ، فإن لها ذيولاً لعلي أحكيها في يوم من الأيام !

١٩٧٧/٧/١٢

نزهة برية

قال بعضنا لبعض : تعالوا ننسى هذه الأحزان يوماً ، فنخرج في نزهة برية نقف فيها على وادي اليرموك ، ونمرّ بحقول الخضرة الربيعية في حوران .

كان معنا صديق له مزاج "خَلَوِي" نعرفه له ، فجعلناه أمير الرحلة ، يتولى قيادتنا فيها ، عملاً بالوصية التي قرأناها في الأثر . وتواصينا بالطاعة له . وكان معه صديق آخر من حوران ، يعرف الطرق والأنواء ، فجعله الأمير مستشاراً له . وحمدنا للأمير ، في أنفسنا ، هذه المبادرة الواعية .

شمّر الأمير ، وقد أعجبته الإمارة على ما يبدو ، عن ساعديه ، فأمر مستشاره بشراء اللحم وتقطيعه . وأمر فرداً آخر بشراء الماء المعدني وحفظه في أواني التبريد . واختار واحداً منا لشراء الفواكه . فلما رجعنا إلى أنفسنا وجدناه خصّ نفسه بمهمة التنسيق ! قلنا : هو الأمير في كل حال ، مِن حقّه أن يضع كلاً منا في الموضع الذي يختاره . ولكننا ، حين جمعنا ما اشتريناه ، وجدناه هيأ الأواني النظيفة والصحون والملاعق والسكاكين ،

واشترى الفحم ، وهيأ المنقل والأسياخ والكراسي الصغيرة . فعتبنا على أنفسنا ما ظننا فيه ، وكبر في أعيننا ، واشتدت ثقتنا فيه .

تواعدنا على ساعة نلتقي فيها . فلما استيقظنا في الصباح ، نظرنا في السماء فوجدناها مكفهرة تنذر بالمطر . ووجدنا الريح شديدة . ولكن الأمير قال : إنه سمع نشرة الأرصاد تقول : إن درجة الحرارة في حوران تتعدى العشرين هذا اليوم، ولن تسقط فيها أمطار على الإطلاق ! تبادلنا النظرات وسكتنا ، فإن الأمير قال كلمته وأيدها بنشرة الأرصاد . سكت المستشار أيضاً ، بحجة أنه لا يستطيع أن يبدي رأيه في النوء خارج أرض حوران ، فحين ندخلها يقول رأيه فيه !

وسار الموكب . فاختار الأمير أن يسير بسيارته من الخلف ، ليطمئن علينا . ثم إن مستشاره أعلم بطرق حوران منه . فلما أصبحنا قريبين من درعا ، وجدنا الطريق خالية . ولكن الغيوم كانت تتكاثف في السماء . وأخذنا جميعاً نرتجف من شدة البرد . فلو كان الأمر إلينا اخترنا الرجوع ! ولكن الأمير أشار بيده : إلى الأمام ، فتابع الموكب طريقه !

تجاوزنا دَرْعا ، في الطريق إلى مُزيريب . وخطرت هنا للمستشار فكرة معقولة : أن نفاوض مطعماً صغيراً على أن يؤوينا صاحبه فيه ، ويتولى هو تحضير اللحم الذي حملناه معنا ، ويقدمه إلينا ، فإن السماء بدأت تنذر بالعاصفة ! وقف المستشار يفاوض

الأمير، ونحن نتطلع فيهما من وراء زجاج السيارات ، فإننا لم نعد قادرين على الخروج من أبوابها ، مما وقع من برودة الجو !

لكن الأمير ، كان ،على ما يبدو ، يتخيل جلستنا في الرياض البرية ، وقد أخذ يصفّ الصحون التي حملناها ، وينصب المنقل الأنيق ، ويوزع السكاكين والملاعق . فكانت هذه الصورة تسحره ، فيمانع في الاستجابة لرجاء المستشار ! وقد أمر ، في آخر الأمر ، بالنزول في بستان كثيف ، فيه أشجار عالية ، قال : إنها تصد الريح عنا . فنزلنا ونحن نرتعد من البرد !

على أنّا ما إنْ أشعلنا النار، وضممنا اللحم في الأسياخ ، وصففنا الصحون ، حتى بدأنا نحس رذاذاً هيناً يسقط على وجوهنا . كان الأمير يلحظنا ، ويرانا نرتجف من البرد ، فيقول : حرّكوا دماءكم لتثبتوا أنكم ما زلتم شباباً ! فكنا نتبادل النظرات . ثم اشتد علينا الإحساس بالبرد ، فأخذنا نتبادل الهمسات . ثم لما بدأ الرذاذ يقوى سقوطه على وجوهنا ، ارتفعت أصواتنا بالندم على مخالفة المستشار في رأيه الذي رآه !

ولكن الأمر كان فات أوانه ، إذ لمعت في الفضاء بروق خاطفة ، ودوّى صوت الرعد ، وانفتحت علينا أبواب السماء . فألقينا من أيدينا بكل شيء ، وبدأنا نتراكض في البستان كالماعز ، نحتمي بالأشجار . وسمعنا الأمير يصيح : قليلاً وتنجلي السماء !

نظرنا من مواضعنا فوجدنا منقل النار يفيض بالماء ، واسودّ اللحم وغرق في الماء،وامتلأت به الصحون ، وسال الماء على وجوهنا ورؤوسنا .

بقينا متفرقين تحت الأشجار حتى سكت المطر ، وانفرجت غيمة في السماء ، فبزغت من خلالها شمس لطيفة . فرأينا الأمير يركض إليها ويفتح لها ذراعيه مبتهجاً .

ولكنّا كنا بلغنا مرتبة اليأس ، ونحن ننظر في الأشياء من حولنا . ثم لم نلبث أن رأينا الأمير يقف بيننا رافع الرأس ، كأنه يتحدانا مع ما نحن عليه من الكآبة والارتعاد . قال في لهجة من يقرر حكماً تاريخياً يعود إليه الفضل فيه : ستذكرون هذه النزهة طويلاً ، ولن تنسوها إلى آخر العمر ! فلو لم تجلسوا هذه الجلسة ، ويقع لكم ما وقع فيها ، فمن أين تذكرونها من بعد ؟

*

سيقرأ أصدقائي ما كتبت عن نزهتهم . فليسألوا أنفسهم : أليس الأمر كان يكون على هذه الصورة لو لم نخرج عن رأي الأمير ؟

١٩٧٩/٤/٣٠

صورة تموينية

احتَجت ، وأنا في حلب ، أن استبدل ببطاقة التموين بطاقة أخرى أصغر منها . سألت موظفاً في النفوس :

- **هل يتعين عليّ أن أنتظر خبرًا من التموين ، بضرورة مراجعتهم ، أم أبدؤهم أنا ؟**

صاح في وجهي وهو يطوي سجله العتيق :

- **إياك ! كأنك لا تعرف " عقلية " الدولة ! اذهب إليهم على الفور حتى لا يجعلوها قضية ! وهم لهذا وزعوا دوائر التموين على الأحياء !**

كنت أظن أنهم سيقدرون لي هذه "المبادرة ". فلما لم أجد مكاناً أقف فيه السيارة الصغيرة ، وقفتُها في الشارع العام . وقلت : دقائق أستبدل فيها البطاقة وأعود . ودعوت ، في سري ، أن أنجو من عقاب المخالفة .

لما دخلتُ عليهم ، وفي يدي الدفتر الصغير ، نظر الموظف المكلّف في وجهي ونفخ نفخة طويلة ، يريد أن يقول :

- **"ما أثقلك ! تأتينا في آخر ساعات الدوام" !**

وتناول الدفتر فأخذ يقلّبه كأنه يتـــهيأ لرميـــه فـــي ســـلّة المهملات ! ثم رماه من يده وبدأ يسوّد ورقاً كثيراً ، ويوقّع عليه في مواضع كثيرة ، على اليمين وعلى الشمال ، ومن فوق ومن تحت ! نظرتُ من حولي فرأيت السجلات تملأ حيطان الغرفة ، فـــأدركني إحساس بالعبثية يدركني مثله دائماً في دوائر الدولة !

ثم لما انتهى ، وكانت أصبحت بيـــن يديـــه رزمـــة مـــن الأوراق ، قرّب مني علبة محبّرة وأشار إلى مواضع في الأوراق ، وقال في سأم :

ـــ ابصم !

حبّرت إصبعي وبصمت بصمتين . ومددت يدي إلى ورقة مهملة أريد أن أمسح الحبر عن إصبعي ، فقال كأنه يتشفّى:

ـــ انتظر ! فأمامك بصمات كثيرة !

حملت إصبعي والأوراق إلى موظف آخر ، فعـــاد إلـــى السجلات، وملأ خانات أخرى في الأوراق . كان رجلاً ملتحياً لحية خفيفة ، ومن عادته ، فيما يبدو ، أن يرفع صوته إذا قرأ شـــيئاً أو كتَبه . قرأ اسمي وتهجّاه ، وأنا أكاد احترق من الغيظ . ثـــم رفـــع رأسه وسألني :

ـــ هل تعمل في الجامعة ؟

فأجبت .

قال : **إن الاسم ليس غريباً عني ، هل تكتب كتبـــاً فـــي الجامعة ؟**

قلت : **لا تخلو الحال من بعض الكتب.**

قال : **هوايتي القراءة ، تفضل فاجلس !**

وقرّب مني كرسياً مخلوعاً فجلست .

ثم قال : **لو أرسلتَ إليّ كتاباً من كتبك أقرؤه !**

هزرت رأسي بالموافقة . في حين أخذ يرفع صوته يخاطبني بلقب الأستاذية ، ويتأنّى في خطابي وتوجيهي إلى الموظف الثالث . ثم حمل الأوراق إليه وأخذ يوصيه بي . قلت في نفسي : الحمد لله ، قاربتُ أن أنتهي .

كان الموظف الثالث قابعاً في الركن ، وإلى جانبه خزانة مملوءة بدفاتر التموين . لما وصلتُ إليه قرّب مني ، هو الآخر ، كرسياً وسألني الجلوس ، جلستُ وإصبعي المحبّرة مرفوعة إلى الأعلى، خشية أن تقع على شيء فتلوثه . وكان سمع حديث زميله إليّ . فلما جلستُ نحّى عنه الأوراق ،وتجاهل الناس الواقفين أمامه ، وقال :

- **يا أستاذ ! لي ولد في الصف الخامس .**

(كان الرجل متقدماً في السن ، فظننت أنه يعني : في السنة الخامسة من الجامعة) .

قلت : **في أي كلية ؟**

قال : **كلية إيش ؟ في الصف الخامس الابتدائي !**

فتنفست وأنا اختنق : **نعم !**

قال : **كيف يعلّمون في المدارس هذه الأيام ؟ تصـــور : المعلمة تعطيه إعرابة تقول له : أَعْرِبها ! كيف يعربـــها وهو لا يعرفها ؟**

قلت وأنا أتماسك ، أريد أن أنهي الموضوع : **خطأ** ، **خطأ لاشك . لعلها تتنبه إلى هذا من بعد !**

قال وهو يهز يده على نحو ما اعتاد الحلبيون أن يفعلـــوا في مثل هذه الأحوال :

— **تيتي تيتي ! تتنبه قال ! تتنبه وهي لا تعـــرف موضع الخطأ من الصواب ؟ الإعرابة يا سيدي تقـــول : كلي جيداً لتتحسن .. لتتحسن ...**

قلت مستدركاً : **لتتحسن صحتكِ !**

قال موافقاً : **لتتحسن صحتكِ ! صحيح ! كيف نعرب كلمة : جيداً ؟**

قلت وقد وصلت إلى اليأس ، ولم يبق في اليد حيلة :

— **صفة لمفعول مطلق ، يعني : كلي أكلاً جيداً !**

قال : **يا سلام ! والطفل كيف يعرف هـــذا ؟ " أي خيـــو المفعول المطلق كله ما أخذه " !**

أخذت ألوي رأسي على الجانبين . واستهواني الموقـــف . نسيت إصبعي والدفاتر والتموين ، وبدأت أصيح متعجباً :

— **يا سلام ! يا سلام ! كيف يفعلون هذا ؟**

— **أي خيــو قل لهم هم : من أين يأتوننا بــهؤلاء المعلمات ؟ اسمع أيضاً جملة أخرى !**

وجدتُ الأمر سيطول ، وكنت أمضيت فيه أكثر من ساعة .

وحانت نظرة من الموظف الثاني الذي استهداني الكتاب ، فتوسـلتُ به . فأومأ إليّ برأسه ، وصاح في زميله :

— **يا سيدي ، الأستاذ مستعجل ، ونحن في آخــر الدوام ، ناولْه دفتراً بأربعة أشخاص ، الله يستر علينــا وعليك !**

ردّ عليه في ضيق :

— **صحيح ! دفتر بأربعة أشخاص . ولكني نســيت الجملة !**

— **يا سيدي تتذكرها من بعد !**

فرد في أسى : **ولكن الأستاذ يكون** راح !!

*

كانت إصبعي جفت . غمستها في الحبر ثانية . بصمــتُ في حوالي بضعة عشر موضعاً أشار إليها . اختطفــت الدفــتر ، واندفعت إلى الباب . لما أطللت على السيارة ، من بُعد ، وجــدت ورقة المخالفة الرفيعة الطويلة تهتز من فــوق زجاجها الأمامي !

١٩٧٩/٩/٢

نفلسفها حتى نقبلها !

لي صديق ابتلاه الله بحب العاديات والتحف . وآثره بفضلة من المال ينفقها في اقتناء السجاجيد الثمينة والمشربيات المزخرفة وصحون الخزف الصيني والساعات والتماثيل والمحابر .

كنا قضينا معاً سنوات الدراسة الإعدادية وهو إلى جانبي ، نتقاسم أحياناً غداءنا في المدرسة ، من الخبز والزيتون والزيت والصعتر الحلبي . وكنت أزوره في بيته القديم ، في أحد أحياء حلب الشعبية ، نقعد على الطراحات الممدودة ، ونمد البساط على الأرض ، نأكل فوقه ، ونتقاسم الأحلام الكبيرة .

فحين أزوره هذه الأيام وأتملّى جدران البيت المغطاة بسجاجيد الحرير والمشربيات وصحون الصيني ورفوف التحف النحاسية والخزفية المزركشة ، أقول لنفسي :

— تراه ينتقم لنفسه من حرمان الماضي ؟

زرته مرة فرأيت ،في بعض زوايا البيت، جرّتين ضخمتين من الخزف الصيني الفاخر ، تقعدان على قوائم كالأظلاف ، متماثلتين ، وعليهما رسوم وتلاوين صينية دقيقة رائعة الجمال ، قال : إنه اشتراهما من أحد البيوت القديمة في حلب ،

بعشرات الآلاف (يوم كانت الآلاف آلافاً بالفعل) وقال : إنهما تحكيان قصة سلالة تسونغ التي حكمت الصين ، من مبدئها إلى ختامها ، وما وقع لها على طول السنين .

ثم زرته فحدثني أن رجلاً زاره ، فرآهما ، فعرض عليه أن يشتريهما بمئات الآلاف . خرجت يومها من بيته وفي رأسي مثل حرارة التنوّر . فإني حسبت ما يدخله من الجرّتين (على غير قاعدة الحسد ولا الطمع ، إذ إني أرى أنه لا شيء، مع الموت ، يستأهل أن يُحسد الإنسان عليه ، ولا شيء يستأهل أن يطمع الإنسان فيه غير سكينة النفس التي لا تباع في الأسواق ، لسوء الحظ) ! فوجدته يختزل ما يدخلني من عملي لعشر سنوات كاملة ، أجمعه كله لا آكل به ولا أشرب ، ولا أنفق شيئاً منه على الإطلاق .

وعدت إلى زيارته فقال : **إن بعض أصحاب العاديات أوصاه أن يصور الجرتين ويرسل بأوصافهما إلى بعض المتاحف العالمية التي سماها له ، يعرض عليها شراءهما . فقد يتعدى ثمنهما المليون !**

خرجت، هذه المرة ، من بيته وأنا لا أصدق ما سمعت :

جرّتان من الخزف الملون تختزلان دخل العمر كله !

مضت أيام كثيرة ، زرته بعدها ، فرأيت الزاويتين خاليتين . فوقع في نفسي أنه وفق إلى بيعهما . وقدرت ، قياساً

على الماضي ، أن يكون ثمنهما بلغ الملايين . حِرْت كيف أسـألـه . ثم سنحت الفرصة ، فقلت له :

— وفّقتَ إلى بيع الجرّتين أخيراً ؟ فمن اشتراهما ؟

قال في ضيق : **دعني من حديثهما !**

— **خير ، هل غبنوك في الثمن ؟**

— **ليتهم فعلوا ! لكنّ زوّاراً جاءونا ومعـــهم أولاد صغار ، فحاموا فـــي البيــت . دفعـوا واحــدة منــهما فانشرختْ ، فتراجعوا مذعوريـــن ، فدفعـوا الثانيــة ، فانضربت بالحائط ووقعت كِسَراً على الأرض !**

لم أعرف كيف أجيبه . ثم وجدتُ كلاماً أقوله ، فقلت :

— **تذكر يوم كنا، ونحن صغار ، نقعــد فــي بيوتنــا القديمة ، نمــد بســـاطنا علــى الأرض ، نبيـــع الأحــلام ونشتريها ؟ لو استرجعتَ تلك الأيام الخالية ، وقد تحققتْ لــك اليوم أحلام كبيرة ، هل كنت ترضى أن تبيعها بأحلام الماضي الفقيرة ؟ وأيام كفاحك في الكلية لتجمع نفقة الدراســة ! كــم تسوي النشــوة التي كنــت تحسها في نجاحك فيها ؟ ذلــك ، يا صديقي ، هو معنى العمر الحقيقي ، وهذا ثمنــه الــذي لا ينشرخ ولا ينكسر! أمضيتَ زمناً وأنـــت تتملّــى الجرتيــن ، وتمتلئ بجمالهما ، وبإحساسك بامتلاكــهما ، فــهذا ثمنــهما الباقي لك ، حتى ولو كســبت بهمــا الملاييــن ، إذ تمضــي أنت في نهاية الأمر ، وتخلفها للآخرين !**

*

لم ألق صديقي بعدها . ولكن وصـــل إليّ ، على لسانه ، كــلام يقول :

ــ لو أنه (يعنيني بالطبع) ســـكت ، لأعفـــاني ، وأنا استمع إليه ، من الإحساس بالغيظ . تراه ، لو كانت الجرّتان له ، يفرغ لمثل هذه الفلسفة الفارغة ؟

قلت يومها لصديقنا الذي حمل الكلام إليّ :

ــ ولكنْ لو لم نتفلســـف نحن ، فما الذي يتبقـــى لنا ، مع طول خيبتنا المرّة ؟ أفليس ينبغي أن نفلســـفها حتى نقبلها ؟

١٩٨٦/١١/٢١

في الطائرة

خرجتُ يوماً إلى مطار باريس الصغير ، أنتظر الطائرة التي تقلني إلى دمشق . كنت أمضيت في باريس أسبوعين شتويين ذقت فيهما ، من لسعة البرد ، ما جعل المدينة تزداد سواداً في عيني . فخرجتُّ إلى المطار قبل موعد الإقلاع بأربع ساعات ، كأني أتعجل ساعة السفر .

رأيت في المطار عدداً من مهندسي مطار دمشق الدولي الحديث ، من الفرنسيين ، يريدون السفر معنا إلى دمشق للالتحاق بعملهم في المطار . فرأيت واحداً منهم ، وكان كأني أراه الآن : أشقر صغيراً حلو السمات ، في عينيه حَوَل خفيف يزيده ملاحة ، وإلى جانبه فتاة ، لعلها خطيبته ، خرجت تودعه . كنت أسمع عن غزل الفرنسيات ، وأتمنى أن أراه في غير مواطن التبذل . رأيتها تميل عليه ، على نحوٍ لا أعرف كيف أصفه ، تمر بشفتيها على عينيه وأنفه وأطراف فمه . ثم وقفت تحك خدها بخده . وانتقلت إلى عنقه ، فخلعت عنها قبعتها الصوفية البيضاء وأخذت تمرغ رأسها فيه ، وتلوّح بشعرها المنسدل فتغطي وجهه وتغمره به .

وكانت توردَتْ وبدت كأنها تختلج ، فيأخذ يضمها ويشَمها ، ثم يُقبلتها فتطير إلى وجهه من جديد .

كنت أرقب هذا المشهد خلسة ، وأرقب إلى جانبه إعلاناً يشير إلى تأخر طائرتنا ، فأجد العزاء فيما أنا فيه . ثم انقضى الموعد الجديد ، وانقضت ساعة بعده ، وغادر المهندس وخطيبته مكانهما ، فلم أعد أعرف ما أفعل . غادرتُ مكاني إلى المقصف الصغير ، وقلت : أتناول لقمة خفيفة أتلهى بها عن الوقت . وجدتُ إلى جانبي رجلاً بديناً يرتدي معطفاً عريضاً تركه مفتوحاً ، وعلى رأسه قبعة عريضة الحوافي أيضاً . كان طافح الوجه ، أقرب إلى سمرة بلادنا . فلما سمعني أطلب لحماً بارداً اقترب مني وهمس بالفرنسية في تودد :

ـ اعتقد أنك عربي ، ولعلك مسلم . انتبه ، اللحم هنا لحم خنزير !

فبعد دقائق قليلة ، بدونا كما لو أن أحدنا يعرف الآخر منذ زمن طويل . كان رجلاً سمحاً ، رأيته غريب الأطوار . أخذ يكثر ، بعد نصيحته لي ، من شرب النبيذ ! عرفتُ أنه من حلب ، وقضى في فرنسة ما يقرب من عشرين عاماً تزوج خلالها من امرأة فرنسية أحبها ، ولكنها هجرته . فتزوج أخرى لبنانية ، فما لبثت أن هجرته هي الأخرى وخلّفتْ في نفسه ندوباً لم يشفها الزمان . أخرج من جيبه دفتراً صغيراً فسجل فيه اسمي وعنواني ، ليدلّ على تعلقه بي . وبدا حلواً يفيض أنساً . ولكن كانت تغلبه

الذكرى فجأة فتبدو في وجهه سمات حزينة . ويبدأ حينذاك يخلـط حديثه بالفرنسية ، كأنه كان يراها أقدر على استخراج ما في القلب .

ثم غادرنا المقصـف ، على عجل ، لنلحق بالطـائرة .

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل . وكنت أنتظر أن أراه إلـى جانبـي . ولكني وجدت إلى جانبي شاباً آخر أسمر سـمرة أهـل الهند . وما لبثتُ أن عرفت أنه من الباكسـتان ، ويعرف ألفاظاً من العربية . فلما استوت الطائرة في الجو ، وانشـغل كـلٌ بنفسـه ، لمحت عن يميني وجه المهندس الفرنسي ساهماً يتطلع مـن نـافذة الطائرة دون أن يرى شيئاً ، لظلام الليل . قلت في نفسي : حـرارة القبلات مازالت على خديه ! ولمحتُ صديقي الحلبي يجلس بعيـداً مني ، في أول الطائرة . التفتُ فرآني ، فلوّح لي بيده .

أخذتُ أشغل نفسي بالحديث إلى جاري الباكستاني . فجعل يقرأ عليَّ آيات من القرآن ويسألني عن معانيـها ، فأشـرحها لـه شرحاً أختار له أبسط الكلمات . وهنا بدأت الطـائرة تضطـرب ، والليل من حولنا ، شديد الظلام . ثم أخذنا نسمع صـوت المطـر يضرب نوافذ الطائرة .

اشـتدت وحشتي . وذكرت تأخر الطـائرة فـي مطـار باريس ، فخيِّل إليّ أن القدر أمهلنا فيه لننجو بأنفسنا ، ولكنا أبَيْنَـا . ثم اشتد صوت تساقط المطر على نوافذ الطائرة ، فبـدأتُ أذكـر وجوه من أُحبّ من الناس ، وأتصور ما سيعانون من الحزن حيـن يبلغهم النبأ !

ولكن الطائرة هدأت قليلاً ، والمطر ما يـزال يضـرب نوافذها . واختار جاري الباكستاني آيـات أخـرى أخـذ يقرؤهـا بصعوبة . كانت الطائرة قد دخلت منطقـة عاصفة فوق الأراضـي الألمانية ، وأخذت تضطرب بشدة . ثم اشتد صوت تساقط المطر ، وأعلنت الإشارات الضوئية أن علينا أن نربط أحزمتنـا . فقـوي إحساسي بالخطر ، وفقدتُ قدرتي على صياغة الألفاظ . أسـلمت رأسي إلى المقعد ، وبدأت أحس بالدوار . وأخذت المضيفة تـروح وتجيء على عجل ، والطائرة تهتز اهتزازاً عنيفاً . وبدأ كثير مـن الناس يتقيؤون . وارتفعت زفرات مكبوتة من كل ناحية . لمحـت وجه المهندس الفرنسي كأني أراه في الحلم . وخطر لـي خـاطر كئيب : كانت فتاته إذن تودعهوداعمن تحس أنها لن تراه من بعد !

تمثلت وجهها : ما أرقه ! ما أجمله ! ثم هـوت الطـائرة فجأة في أعماق الظلام ، واختلط كل شيء ، وطـار أنـاس عـن مقاعدهم ، وطار ما في أيديهم من زجاجات الشـراب . وارتفـع صراخ حاد من المقاعد . ثم سمعت نحيباً يقطع القلب . حسـبت أن كل شيء انتهى في غمضة عين ، وأخذت أُقبل على الموت .

ولكن الطائرة استوت من جديد وهي ما تزال تهتز . ثـم أعلن قائدها أننا اجتزنا العاصفة بسلام .

رأيت الناس يبتسمون وهم يغالبون البكاء من شدة التأثر . ووجدت رغبة في أن أسترخي بعد هذا التوتر . أغمضت عينـي . ولعلي غفوت غفوة صغيرة . ثم فتحت عيني على يد تمس كتفـي .

رأيت وجه صديقي الحلبي يميــل عليّ ، فابتسمت له أطمئنه وأنــا لا أقوى على الحركة .

همس في أذني : **أنا في حال سيئة !**

نظرت في وجهه كأني أجيبه : **ومن يقول إنه في حــال حسنة !**

قال موضحاً :

ـ أعني أني في حال نفسية سيئة !

وكرر بالفرنسية كلامه كأنه عجز عن إفهامــي بالعربيــة ما يريد أن يقول . فهززت برأسي كأني أوافقه على مــا يقــول . أضاف يقول في ضجر :

ـ تلك الجالسة عن يساري ، هل تراها ؟

هزتني غرابة الموقف ، وأنا على تلك الحــال . رفعـت رأسي عن المقعد ، رأيت امرأة لم أستطع أن أتبينها لبعــد مكــاني منها . ولكني هززت له برأسي مرة أخرى ، أوهمه أني رأيتــها ، فقال :

ـ تصور كم تشبه زوجتي اللبنانيـــة ! الســاقان بصورة خاصة ! هل تتصور عذابي منـــذ رأيتــها فــي الطائرة ؟

١٩٧٧/١١/١٤

مشهد من التراث

التعريف بالأشخاص :

أبان بن عثمان : **ابن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان . كان والياً على المدينة في صدر العصر الأموي . عرف بالهزل والعبث .**

أشعب : **أشعب بن جبير ، المعروف بالطمع والظرف . كان من أهل المدينة في ذلك العصر .**

(١)

(مجلس أبان بن عثمان في المدينة ، ومن حوله رجال فيهم أشعب ، وأحد الكتاب . ينظر أبان من نافذة المجلس ، فيرى أعرابياً أشقر ، شرس الخلقة ، يبين الشر في وجهه ، وهو يجر جملاً هزيلاً لا يساوي أكثر من عشرة دنانير) .

أبان (ملتفتاً إلى أشعب) : **يا أشعب ! هذا الأعرابي من الصنف الذي يصلح لنا . ادعُه إلينا !**

أشعب (يقوم إلى الأعرابـــي) : **السـلام عليـك أيــها الأعرابي ! الأمير أبان بن عثمان يدعوك إليه !**

الأعرابي (وهو مقبل على المجلس) : **السلام عليك أيـها الأمير !**

أبان للأعرابي : **وعليك السلام ، من أي القوم أنت ؟**

الأعرابي : **من شيبان !**

أبان (وقد أظهر السرور والتودد إلى الأعرابـــي ، كـأن النسب قرّبه منه) :

— **حيّاك الله يا خالي ! حبيب ازداد حباً !**

(الأعرابي يأخذ مكانه من المجلس ، وهو يتطلـــع إلـــى أبان) .

أبان للأعرابي : **يا خالي ! إني أطلب ، منذ زمان ، جملاً مثل جملك فما أجده كما أريد : بـــهذه الصفــة ، وهــذه القامة واللون والصدر والوَرِك والأخفـاف ! فـالحمد لله الذي جعلني أجده عند من أحب . أتبيعه ؟**

الأعرابي (وقد ظهر الطمع في وجهه) : **نعم أيها الأمير !**

أبان : **فإني أبذل لك فيه مئة دينار !**

(الأعرابي ينتفخ ، ويبين السرور في وجهه) .

أبان لأشعب : **ويلك يا أشــعب ! إن خالي هذا من أهلـك وأقاربك (يعني : الطمع) فانظر ما تفعل !**

أشعب لأبان : **نعم بأبي أنت ، وزيادة !**

أبان للأعرابي : **يا خالي ! إنما زدتك في الثمـــن علـــى بصيرة . فجملك يساوي ستين ديناراً . ولكني بذلت لك مئة لقلة النقد عندنا . وإني أعطيك به عروضاً تساوي المئة !**

الأعرابي (وقد زاد طمعه) : **قبلتُ ذلك أيها الأمير !**

(٢)

(أبان يهمس في أذن أشعب فيُظهر أشعب شيئاً مغطـــى ، يضعه أمامه) .

أبان لأشعب : **أخْرِجْ ما جئت به !**

(أشعب يكشف عن عمامة ممزقة من الحريــــر البـــالي تساوي أربعة دراهم) .

أبان لأشعب : **قوّمها يا أشعب !**

أشعب (وهو يرفع صوته ، كالمنادي) : **عمامة الأمـــير يشهد فيها الأعياد والجُمَـــع ، ويلقـــى فيـــها الخلفـــاء : خمسون ديناراً !**

أبان لأشعب : **ضعها بين يديه !**

(ملتفتاً إلى كاتبه) : **أثبت قيمتها .**

(الأعرابي يبين الغيظ في وجهه ، ولكنه يســـكت علـــى مضض) .

أبان لأشعب : **هاتِ قلنسوتي !**

أشعب (ينادي وهو يُخرج قلنسوة طويلة بالية ، علاهـــا الوسخ ، تساوي نصف درهم) :

ــ قلنسوة الأمير ، تعلو رأســـه ، يصلّـــي فيـــها الصلوات الخمس ، ويجلس للحكم : ثلاثون ديناراً !

أبان للكاتب : **أثبت قيمتها وضعها بين يديه !**

(الأعرابي يتربّد وجهه ، وتجحظ عيناه ، ويهمّ بالوثوب ، ولكنه يتماسك وهو يغلي من الغيظ) .

أبان لأشعب : **هات ما عندك !**

أشعب (ينادي وهو يخرج خُفّين باليين منقوبين) :

ــ خُفّا الأمير ، يطأ بهما الروضة ، ويعلو بـــهما منبر النبي : أربعون ديناراً !

أبان للكاتب : **أثبت قيمتهما ، وضعهما بين يديه .**

(يلتفت إلى الأعرابي) : **اضمم إليك متاعك !**

(وإلى واحد من رجاله) : **اذهب فخُذ الجمل .**

(وإلى رجل آخر) : **امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً !**

(٣)

الأعرابي (وهو يثب كـــالمجنون . يتنـــاول العُـــروض، فيضرب بها وجوه الناس ، ويلتفت إلى أبان) :

— **أتدري ، أصلحك الله ، من أي شيء أموت : لم أدرك أباك عثمان فأَشتركَ والله في دمه ، إذ وَلَدَ مثلك**

(يأخذ برأس الجمل فيجره إليه وهو لا يكف عـــن شـــتم الناس ، وأبان يضحك حتى يكاد يســـقط ، والنـــاس مـــن حولـــه يضحكون) .

١٩٩١/٤/١١

نزاع الأجيال

كان لي قريب في حلب ، لا يعرف في حياته غير الجد . إذا رأى الناس يلعبون ويهزلون ضاقت به الأرض ، وأصبح لا يدري ، في ظنه : كيف يخلق الله الناس عبثاً على هذه الشاكلة !

وكان له ولد تولع بألعاب الجودو والكاراتيه ، حتى صرفتْه عن دروسه . فكان قريبي يصبّ أحزانه على من يجالسه ومن يقابله من الناس . يقول لهم :

ـ تصوروا أن يكون لكم ولد يقضي حياته في هذه الألعاب !

كان الولد يعيش في البيت في عالم منفصل ، يلبس الرداء الأبيض الذي يرتديه لاعبو الجودو ، ويشد على وسطه حزاماً يتدلى طرفاه من الأمام ، ويحمل على يده ، حيثما اتجه في البيت ، قطة سيامية يمسح على رأسها . فإذا رأى أباه يلحظه انفتل على نفسه ، ودخل غرفة من غرف البيت ، وأغلق على نفسه الباب !

مات الأب ، بعد زمن ، مقهوراً على ولده . وبدأتُ أسمع ، وأنا في دمشق ، أن الولد تقدم في هذه الألعاب حتى أصبح نجماً من نجومها . سمعتُ أنه سافر إلى اليابان . وحكى لي يوماً أحد الأصدقاء ، و كان يزور سفارتنا في طوكيو ، أنه سمع اسم

الولد يتناقله بعض رجال سفارتنا في اعتزاز . ويقولـــون : إنـــهم حضروا البارحة حفلاً له هزم فيه سبعة من اليابانيين ! ثم علمـــت أنه أصبح واحداً من منتخب الدولة في هذه الألعاب ، وأنــــه أحــد المدرِّبين المرموقين فيها . تمنيت حينذاك لو أن أباه الذي لم يعرف من الدنيا إلا بعض أطرافها القريبة ، عاش حتى رأى ولده يجـوب أقطار الأرض ، ويمثِّل الدولة في المهرجانات الرياضية العالميـة . ما أدري حينذاك : هل كان عُمْر واحد يكفيه ليعيد نظره فـــي دَور الإنسان على الأرض ؟

على أني نشأت على القِيَم التي نشأ عليها قريبي . فـــإني أعجب:كيف يقضي الناس الساعات الطوال أمام شاشـــة التلفــزة ، يتتبعون كُرَة يضربها الناس بأرجلهم، فتطير من جانب إلى جانب . ويظلون يعيدون الكَرّة ، ويقتتلون على الفوز بالكُرة ، حتى يوفَّـــق أحد الطرفين إلى إدخالها في شبكة الطرف الآخر ! وأعجب:فيمَ هــذا الفرح الذي يغمر المنتصرين ؟ وما جدواه في حياة النـــاس ؟ وأرى أولادي يخالفونني الرأي ، فيسهرون معظم الليل وهم يتتبعون هـــذه الكُرَة ، ويرصدون نتائج المباريـــات ، ويـــهملون فـــي ســـبيلها ، امتحاناتهم القائمة . فإذا راجعتهم وجدتهم كما لو كنت أكلِّم كائنـــات من كوكب آخر . وأحسبهم هم أيضاً يحسون الإحساس نفسه !

كنت أسمعهم يرددون اسم (بيليـــه) ، و(كومانيتشــــي) كثيراً ، فلصق الاسمان في خاطري . وحمل إليّ أحدهم ، في أحــد الأعوام ، تقويماً رديئاً لأشهر السنة ، وجـــدت في صفحته الأولـــى

صورة لاعبٍ يلعب بالكرة . فانتـابني الذهـول أن يصرف نقـوده في شراء هذه الأوراق الرديئة ، ويعلّق على جدار الغرفة صـورة معفّرة . سألته :

ـ تصرف هذا المبلغ كله لتشتري صورة (بيليه) ؟

رأيته يغـرق في الضحك وهو لا يعرف كيـف يـداري نفسه أمامي . ثم لما امتلك نفسه أجابني وهو يتلمس لغة أسـتطيع ، في ظنه ، أن أفهمها :

ـ بابا أنت تأخذ صفراً في هذا السؤال (يسـتعير لغته من حياة المهنة التي امتهنها في الجامعـة **) ! هـذه صورة (زيكو) لا صورة (بيليه) !**

أعرف أني أجحد الرياضة قيمتها الكبيرة في تربية الفـرد الجسدية والنفسية . فهي تُعلّم التماسك والتعاون ، وأساليب المـداورة ، والكر والفر ، والتقيد بقوانين الصراع . وتُعلّم الصبر على الخصم ومنازلته ، وفهْم خطته في إدارة الصراع ، والتصدي لها ، وكشفها وانتزاع الفوز من قبضته ، كما تعلّم تقبّل الهزيمة ودراسة أسبابها . وهذه كلها مسائل تمس حياة الإنسان في الصميـم ، وتدخـل فـي صُلبها . فالحياة ، في آخر الأمر ، على ما يبـدو من اسـتعراض التاريخ البشري كله ، صراع تتغير صـوره ، ويبقـى جوهـره قائمـاً في صياغة العلاقـات الإنسانية ، على وجه الإيجاب حيناً ، بمعنى أن يتوازى خط الصراع بين فريقين من النـاس ، وعلـى وجوه السلب أحياناً ، بمعنى أن يتقاطع خط الصراع بينهما !

فلهذا ، على ما يبدو لي ، يقدّر الناس البطولة في الصراع المكشوف ، لوضوح صلتها بمعاني حياتهم ، ويكرّمونها تكريماً يستوقف النظر ، على حين يقل تقديرهم للذين يصارعون بعيداً من أنظارهم ، في المخابر والمكتبات ومراكز البحوث ، وفي الحقول والمصانع ، حتى لنسمع اليوم أن فلاناً من لاعبي الكرة أو مدربي الجودو والكاراتيه تتجاذبه الأندية بملايين الدولارات ، أو بعشرات الملايين ، في حين يقف رجل الفكر والقلم أو من يماثله ، يتلفت في حيرة ، لا يعرف ، أحياناً كثيرة ، كيف يجمع قوت نفسه وقوت عياله !

* * *

هل يصلح هذا الكلام أن يكون عزاء لقريبي الذي مات مقهورًا على ولده بطل الجودو والكاراتيه ؟ أم لعله لو عاش إلى اليوم ، فشهد ولده في الصورة التي صورتُها ، مات مقهورًا على نفسه وعلمه وأدبه ، وعلى العالم كله من حوله ؟

١٩٨٦/٨/٢٢

(٧)

مع الإنسان

مَثَل الهر و السِّنَّور

ورثت عن جدي نسخة قديمة من كتاب " كليلة ودمنة " الهندي الأصل، الذي وردت فيه الحكايات على لسان الحيوان ، ونقله ابن المقفع من لغة الفرس القديمة إلى اللغة العربية . نسخة عتيقة فيها خروم كثيرة ، سقطت منها أوراق لا أعرف عددها ، فدخلتْ في كتب أخرى . أكون أقرأ كتاباً في التاريخ ، فأقلب الصفحة فأجد أمامي ورقة سقطت إليه من هذه النسخة وانطوت فيه ، فأقرؤها وأنشغل بها ، وأجد فيها راحة لا يعرف الناس مثلها إلا في كتب الحكمة القديمة .

وكنت وقعتُ على واحدة من هذه الأوراق أحسبها سقطت من أول الكتاب ، فنشرتها لأني لم أجد لها أصلاً في نُسَخ الكتاب المتداولة . وكتب إليّ بعض من قرأها يقول : إنها ليست من أصل الكتاب ، فلعل أناساً كتبوها على نسقه لشدة إعجابهم بهذه الحكايات ! وكتب إليّ آخرون يقولون : إنهم أضافوها إلى النسخ التي في أيديهم من "كليلة ودمنة "، ويريدون أن أنشر ما أقع عليه من أوراقها الساقطة الأخرى ، مما لا أجد له أصلاً في النسخ المتداولة !

تقول الورقة : " وقال دَبْشليم ملك الهند لبيدبّا رأس فلاســـفته: اضرب لي مثل الرجل يكون خلقه الله لعمل ، فيتركه إلى عمل آخر لم يخلق له . فإذا نصح له الناصح لجّ في غيّه ، فـــأوقع المضرة بنفسه .

قال بيدبُا الفيلسوف : مَثَل هذا الرجل أيها الملـــك ، مَثَــل السِّنوَّر[1] الذي كان لقــوم في دارهم ، فسلطوه علــــى فئران الدار حتى برع في صيدها. فكان لا يُرى إلا وفــــي فمه فأرة أو دِرْص[2] . فسمِنَ وتشحّم ، واتسخ وبـــرُه من طول ما تسحّب في شقوق الجدران ، وأهمل نظافـــة نفسه . ونظر هذا السِّنَّور فوجد إلى جانبه هـــراً لطيفـــاً يتخذه أصحاب الدار لتسلية أنفسهم . يحملونه ويمسحون على وبره ، ويوسّدونه الوسائد ، ويطعمونه بأكفــــهم . فكان السِّنَّور لا يراه إلا نظيفاً مصقولاً . فوقع في نفســه أنه لو استرخى مثله على الوســائد والبُسُــط ، وطــرح نفسه على أصحاب الدار ، وتلعّب أمامهم ، ومطّ مواءه ، بلغ مبلغ الهر من حبهم ، فجعلوه علــــى صدورهـــم ، وحملوه إلى فُرُشهم . فجعــل يـــهجم علـــى مجالســـهم وينفض فيها وبـــره المتّســـخ ، وينطـــرح ويتقلـــب ، ويموء مواء حاداً يصك أسماعهم . فكانوا يصيحون فيــه

ـــ الهر .

٢ــ ولد الفأر

أو يرمونه بما يقع في أيديهم ، ليبعدوه عنهم . ثم طال الأمر به ، فكان يدخل عليهم في كل ساعة ، يقفز عليهم من النافذة ، ويثب من فوق الجدران ، وينفذ من الأبواب ، حتى لم يعودوا يطيقون الصبر عليه .

وكانت في الدار المجاورة هرّة حكيمة ، فكانت ترقب ما يفعل السِّنَّور بنفسه، وما يلقىٰ أصحاب الدار منه . فكانت تقول له :

– مالك تسلك في نفسك مسلكاً غريباً ، وتفسد على أصحاب الدار أمورهم ؟ أفنسيت أن الله خلقنا واختار كلاً منا لشأن من شؤونه ؟ فأنت لا تنفع في ما تختار الآن لنفسك ، فدع هذا عنك .

سكت السِّنَّور لحظة ، ثم أقبل عليها فقال لها :

– قد عرفتُ ما تقصدين إليه . فأنت تقولين : قد بلغ السِّنَّور من محبة أصحاب الدار وافتتانهم به ما لا أطيق احتماله ، ولا أجد مثله في دار جيرانهم . وغداً أراه فوق صدورهم ، يمسحون عليه بأكفهم ، ويفتقدونه إذا غاب ، وينشغلون به إذا حضر . أفنسيتِ أنتِ أني أُحسن أن أكون في كل مكان ؟ وأني أسمع ثناءهم عليّ حيث أكون ؟

قالت الهرة تجيبه : أيها الأحمق ! فأنت تحسب ما يقول أصحاب الدار فيك ثناء عليك ! فإذا بلغتْ الفتنة بالنفس

ما بلغتَ من فتنتك بنفسك ، وأنت ما أنت في وَبَرك ومؤائك وعملك ، فكيف تنفع فيك النصيحة ؟

ثم إن السّنور لم يسمع نصيحة الهرة التي أرادت نفعه ، فأخذ يزيد في طرح نفسه على أصحاب الدار ، ويكثر من التمسح بهم ، ويخرج عليهم في كل يوم بفن من فنونه ولعبه وتنطيطه ، وينفخ في وجوه أطفالهم وهو يحسب أنه يخلِبهم ، حتى جاء يوم... " خرم كبير في الورقة ذهب بحوالي سطرين " ولو كان سمع النصيحة ووقف على ما يحسنه انتفع بنفسه ، وانتفع به أهله "

هذا آخر الورقة .

١٩٩١/٦/٢٠

وجه في المرآة

في حياة الناس ، كل الناس ، شخصيات لها طعم خاص تفترق به من سائر من يخالطون من الأقرباء والأصدقاء ، ومَن يعرفون من أصناف البشر، في مراحل العمر المختلفة : معلمين أو تلامذة أو صنّاعاً أو وعّاظاً أو رهباناً أو علماء أو كتّاباً أو مديرين أو ساسة . فهذه الشخصيات يتملّى الناس وجوهها في مراياهم مرحلة من الزمان تطول أو تقصر ، ثم تصرفهم الحياة عنها إلى شخصيات أخرى ما تلبث وجوهها أن تغيب عن المرآة ، من جديد .

ولكن وجوهاً ذات سمات ساطعة ما تكاد تغيب حتى تعود إلى المرآة . مثل هذه الوجوه ليست كثيرة في حياة الإنسان ، لا تزيد عن العشرات . ولعله لو دقق في سماتها ، ما زادت أحياناً عن الآحاد . ربما غابت زمناً عن صفحة الشعور ، ولكن طيفاً منها يظل يتلامح في المرآة .

دخلتُ المدرَّج يوماً ، في أول العام ، فتصفحتُ وجوه الطلبة . توقفت عند وجه ترتدي صاحبته زيّ الراهبات . كنت ، كلما التفتُّ إليها ، طالعتني في نظراتها حيرة غريبة ، كأنها كانت

تبحث عن شيء ضاع منها . وكانت ، كلما انتهت ساعة المحاضرة ، تقترب من المنبر ، وقد دسّت يديها في جيوب ردائها الكنسي ، تسألني أن أجلو لها نقاطاً وردت في المحاضرة .

سألتها يوماً : **ما اسمك يا أخت ؟**

— **ماري ... من حلب .**

ردّت وهي تبتسم ، كأنها تريد أن تقول :

— **أنا من مدينتك !**

— **وما تفعلين بدراستك هنا ؟**

— **أطمح إلى أن أكون مدرّسة في مدارس الإرسالية التي أنتسب إليها.**

— **هل درست اللاهوت ؟**

— **في إيطالية .**

— **تتكلمين الإيطالية إذن !**

— **والفرنسية !**

وتابعت تقول : **هل تمانع في أن تحضر معي الأم ... ، وبعض الزميلات في الإرسالية ؟**

— **أبداً ، فباب المدرج مفتوح لكل راغب في الاستماع !**

مع توالي الساعات أسرّت إليّ الأم .. .أن ماري ما تزال تجتاز مرحلة قلقة ، كأنما ينازعها عامل جديد طرأ على حياتها : ضعفُ التثبت من قدرتها على متابعة طريق الرهبنة !

أخذت أتابع بعض دلائل تطورها الفكري والروحي في الساعات التي كنت أراها فيها ، في الجامعة . وقد رافقتْ زملاءها في رحلة جامعية إلى جبل العرب ، فرأيتها في (شهبا) شديدة الانفعال ، تقف على أطلال الحمّام الرومانية فتطيل التأمل فيها ، وتردد، بالفرنسية ، دون أن تعي :

– **هذا يهمني ، يهمني كثيراً !**

كانت يقظة ، غنية الروح ، مستقلة الأحكام . تريد أن تصل ، بمعرفتها ، إلى نهايات الأشياء . وكانت ملامحها الهادئة لا تقوى دائماً على إخفاء حيويتها . فكنت ، حين أراها تتحرك فتدفع عنها أطراف ردائها الكنسي ، أتمنى أن أسمع الصوت الداخلي الذي يصرخ في ضلوعها : شيء ما محبوس ، يريد أن يخرج إلى الفضاء ويرى النور !

غادرت ماري الجامعة ، فلم أرها ، بعد التخرج ، إلا مرة واحدة . دخلتْ عليّ مِكتبي في الجامعة ، بعد سنوات طويلة، فما عرفتها للوهلة الأولى . كانت في لباس مدني ، حاسرة الرأس ، يتهدل شعرها الأسود على جبينها حتى يكاد يخفيه . مدت يدها إليّ بنسخة من الكتاب المقدس وقد كتبتْ على صفحتها الأولى هذه الجملة: "عسى ، من خلال الكلمة ، نصل إلى الروح " ... ماري .

وكان مما قالته ، في هدوء مشوب بالكآبة :

ــ تبينتُ أني على هذا النحو ، أكون أقــدر علــى خدمة الرب !

*

هذا الوجه المتفرد يعود إلــى المرآة بقوةٍ هذه الأيام ، فقد قالوا لي ، في أحد المجالس العارضة ، وعلى غير احتفال :

ــ ماري ... ؟ ماتت منذ زمن !

٢٠٠٠/٤/٣

مجالس الثقلاء

يكتب الناس ، في العادة ، عن مجالس الظرفاء أو أخبار الأذكياء ، يريدون أن ينقلوا إلى قرائهم بعض ما استمتعوا به في مجالسة أصحاب العقول الحية و النفوس المرهفة . و ينقل بعضهم نوادر أصحاب الهفوات،على نحو ما نتناقل نحن اليوم الطرائف التي يصوغها أهلنا في حمص ، وقد أصبحوا هم أنفسهم يستطيبونها ، ويتفننون في "حبكها" وترتيب مفارقاتها الذكية ، وحكايتِها في مجالس السمر ، كأنهم ، في نهاية الأمر ، يرمون إلى أن يَضحكوا من غفلتنا "فيهم"!

وقد كان لنا زميل منهم في الجامعة ، عذب الروح ، جميل الود . وكنا ، أحياناً ، حين يحمى وطيس العمل في الجامعة ، في ليالي الشتاء ، نختار ليلة نلجأ فيها إلى حمّام الملكة في باب الجابية ، وكانت لها آنذاك سمعة كبيرة ، مثل حمّام نور الدين الشهيد هذه الأيام . ففي إحدى الليالي أكملتُ حمّامي وخرجتُ ، فرأيت زميلنا الحمصي سبقني إلى المصطبة وارتدى لباسه . رأيته يحوم ، يَقلِب الوسائد ويرفع أغطيتها ، يفتش عن فردة الجورب التي أضاعها ! يصيح :

ـ جرابي !

يرخي الياء ويمدّها . فلما شغلَنا وشغل صبيان الحمّام معنا ، مدّ إحدى رجليه وعاين الجورب فيها ، فرأى أنه لبس فيها الفردتين معا !

وإذن فالناس يتناقلون مثل هذه الأخبار ، وحكايـــة هــذه المجالس الحلوة . ولكني أريــد اليوم أن أنقــل إلى القــراء بعض أحاديث الثقلاء وغثاثاتهم . والذي ذكّرني بها أننــــا فــي شــهر الامتحانات في الجامعة ، ومواسم تدقيق الأوراق . فليس في مهنتنا أثقل من هذه الساعات ولا أكثر مقتاً منها . وقد أصـــابني معــها ورم في الفك ، عانيت من آلامه المبرّحة . ثم وجدتُ أن ما ألقـــي في تدقيق الأوراق يمكن أن ينسيني آلام الورم في الفك ويصـــرف انتباهي عنها ! وفهمتُ ، في ضــوء هذه المعاناة المركبة ، قــولاً قديماً كنت قرأته في كتب الجاحظ علــى الأغلــب ، يقــول : " إذا أضجرك الثقيل في بعض مجالسه ، فانصرف عنه إلى نتْف الإبط ، حتى يكون هو في شــغل ، وأنت في شغل " !

وقد حضرتُ في القاهرة ، في أوائل الســـتينيات ، مــن القرن الماضي ، مجلساً ضــم أســتاذاً في الفلسفة . فرأيته يريد أن يسفّه كل الآراء ، ويسخر من كل الناس ، ويســتعلي علــى كــل الأساتذة ، لا يكاد يذكر بالخير أحداً من النـــاس ! كــان يُلقـــي الكلام في غير احتفــال ، كأنــه لا يَعنيــه أن يسمع من أحد رداً ،

بل هو لا يتوقعه ، ولا يتوقع أن يرى أحداً يظن أن ينزل هو إلى مستوى الرد عليه !

فلما غادر المجلس رأيت الناس من حوله يتنفسون في ارتياح ، كأنهم أزاحوا عن أنفسهم كابوساً ثقيلاً . قال صاحب الدار التي كنا فيها : قد يكون هذا الأستاذ أحد العقول الممتازة . ولكنه لا شك أحد ثقلاء العالم بقطبيه !

وأعرف رجلاً آخر ، كان لسانه نيئاً لا ينشدّ بالكلام ، يصطنع مضغه ، ويتأنق في تحريك أواخره ، ويَسْكن عند الحروف اللثوية فيه كأنه يقول لسامعه : انتبه لفصاحتي وبياني ! ثم هو يحرص ، إذا تحدث ، على أن يدحرج في الكلام لفظاً أجنبياً أو لفظين ، يُظهر أنه يجمع ، إلى جانب الحرص على اللغة ، ثقافة المشرق والمغرب معاً ! جلس إلى جانبي يوماً ، فاستلّ من جيبه أوراقاً مطوية ، ألقاها أمامه كأنه يريد أن يتخفف منها ، وقال :

– أوف !... بول كلوديل ، وجان جاك روسو ، وسارتر ، وإليوت !

قلت له ، وأنا أظهر التعَجُب :

– عجيب والله ! أذكر أني سمعت هذه الأسماء يوماً ، ولكني لا أعرف أين !

وأعرف امرأة تهوى أن تكون مثقفة ، قالت لي وهي تذكر قريبة لها مسافرة :

ـ تصور ! بدأت أكتب إليها ، منذ ثلاثة أشـهر ، رسالة لم أكملها . ثم إني منذ شهرين ، أمسكت بالقلم أريد أن أكمل الرسالة ، فيا سبحان الله ! (قالتها وهي تمدّ بها صوتها مداً شديداً ، وتهز برأسها) لم يكتب القلم ! فتركتها .

ثم إني عدت إليها منذ شهر وقد استحضرتُ لها قلماً جديداً . فلما أمسكتُه ، يا سبحان الله ! (قالتْها على الطريقة نفسها) انكسر القلم !

ثم عدتُ إلى الرسالة منذ أسبوعين ، واستخرجت قلماً قديماً كان في خزانتي . فلما وضعته على الورق ، يا سبحان الله !

ثم سكتت وأخذت تنظر في وجهي كأنها تستنكر ألا ترى فيه كل علامات التعجب !

سألتها : وبعد ؟

أجابت في استغراب : وبعد ماذا ؟ لم أرسل الرسالة بالطبع !

١٩٨٧/١/١٦

رحى الزمان

أكاد أطوي ، وأنا أكتب هذه الأحاديث ، خمسة عشر عاماً . فحين أعدت النظر فيها رأيتها تكاد تقرب من أن تكون خمسة عشر شهراً ! هكذا يمضي العمر ، وتتسرب الحياة في شقوق الزمن . مات في هذه السنين أناس أحببتهم وأحبوني ، وأناس نشؤوا معي ، وأناس ولدوا بعدي . فما أقصر حياة الإنسان مهما طالت ! وما أتفه ما يتعادى الناس ويختصمون فيه ! لو أنهم توقفوا قليلاً في بعض "محطات " العمر ، كما أفعل اليوم ، لرأوا أنهم كبروا في زمن قصير ، وأن ما كانوا يرونه عظيماً أصبح اليوم صغيراً ، جرده الزمان من أجراسه التي كانت ترنّ في الأسماع . فهو اليوم لا يزيد عن أن يكون ذكرى تعبر صفحة النفس !

في هذه السنوات الأربع مات رجل كنت أظن أن الناس جميعاً يموتون ولا يموت . مات عن سن صغيرة نسبياً فلم يستمتع بما جمعه بالحق حيناً ، وبالباطل أكثر الأحيان ! لم يحمل معه ، في آخر المطاف ، عدا آثامه ، غير الكفن ! وهو ليس له في

كل حال ، هو لدود الأرض . كان قصيراً ممتلئ الجسم ، فلو كـــان من جنس الأفاعي كان أصلَة (بفتح الألف والصاد) ، وهي الحيّـــة المستديرة كحجر الرحى ، لا تمس شيئاً إلا نفثـــت فيـــه سُـمَّها . وتســـير فتطحن طحن الرحا وتتقدم في الأرض . ولو كـــان مـــن جنس الذئاب كان الأمرَط ، وهو الذي تقدمت به السن ، فتمرّط عنه شعره [١] ، وهو أخبث الذئاب . كان كثير الشرور ، قال لي يومـــاً في رجُلٍ خاصمه : أفضل أن أدسّ في جيبه قطعة من الكوكائين ثم أرسل إليـــه الضابطة ! مات فلم يشيعه إلا أهله ، ولم يسأل أحـــد عنه . ولم أسمع أحداً يذكره ، مع ما خلف من الأموال ! فكأنه مـــا كان ! أو كأن الزمان غلط فيه فنشره ، ثم صحح غلطه فطواه !

ولكن الزمان ، من ناحية أخرى ، ربما أصاب في الطيبيـــن فنشرهم ، ثم كأنه راجع نفسه فطواهم ! أقدار لا تخضـــع للتفســـير العاجل ، وليس لنا منها إلا التسليم . فقد مات ، في هذه الســـنوات أيضاً ، صديق عرفته على مقاعد الدرس . يضوع كالمسك . فلو كان طيراً لكان يكون ، من طهره ، السَّمَندل الذي لا يحترق بالنار . أو لكان الشرَقْرَق المخضّب الذي لا يبارح أرض الحرم . ولكان ، من حلاوة منطقـــه ، الحَسّون ، ومن صباحة وجهه واتســـاق شـــكله ، اليمام . كوّن عقله كأحسن ما يكون التكوين ، فكان من ألمـــع مـــن عرفتُ ، في أدوار حياته كلها . حتى أصبح أستاذاً في الجامعـــة ،

---

(١) ـــ سقط

وعميداً فيها . فحينذاك خذله الزمان ، فلم يبرح حتى حملناه ، في يوم حار ، إلى مثواه الأخير .

كلا الرجلين عرفته في مرحلة من مراحل العمر . وظننت يومها أن الدنيا تكشف فيهما عن وجهيها الأبديين : الخير والشر ، وتتوقف عندهما . ولكنهما ، حين ماتا ، لم يبق منهما إلا معنى الخضوع لناموس الحياة والموت ، فهما وحدهما على التحقيق ، وجها الدنيا الأبديان .

وأخيرا مات ، في هذه السنوات الأربع ، رجل أمضى حياته في النفاق . وكنت ، مما أورثني من الهم يوماً ، ما أصدّقُ أن يموت . فحين أذكر الآن أني أعيش في دنيا غاب عنها ، أحس كأني أبدأ حياة جديدة لا أعرفها من قبل ! فما كان أكبره يومذاك ! وما أصغره اليوم ! لو كنت وضعته ، يوم كان حياً ، في موضعه الصحيح ، في إطار النواميس الكونية ، لم يبلغ أذاه مني هذا المبلغ ، ولبدا هو نفسه ، أصغر كثيراً مما كنت أراه .

*

أريد أن أقول : إنا لو وزنّا الأشياء بميزانها الصحيح ، ووضعنا الناس الذين نعرفهم في بعض مراحل حياتنا ، ونراهم كباراً ثقالاً بالغي الأثر ، ضمن حقائقهم البشرية ، بصفتهم صوراً

منسوخة ، لم تُثقلنا همومهم ، ولم نرهم كباراً ثقالاً بهذا القدر . ولحررنا أنفسنا منهم . ولكنا ما أكثر ما ننسى أننا جميعًا لن نزيد ، في يوم من الأيام ، عن أن نكون ، بمالنا وما علينا ، ذكرى تعبر صفحة النفس ، وتبهت مع الزمان .

١٩٩١/١٢/١٩

أسماء وحقائق

في الأثر المحفوظ قولهم : "لكل امرئ من اسمه نصيب". فلهذا يختار الناس لأولادهم أسماءً حلوة تبشر بالخير ، كأنهم يرون أن الإنسان ينشأ وهو يسمع الناس ينادونه به ، فيسعى إلى أن يَصدُق ظنهم فيه ! فهم يقولون : بِشر وكرم ووفاء وجميل وتوفيق وصالح ومسعد .

ولكن الأقدار تضحك في الأسماء أحياناً كثيرة ، كما تضحك في كثير من آمال الناس وأحلامهم : فقد يكون " توفيق " أكثر الناس خيبة في الحياة . ويكون "جميل" غاية في القبح ، ويكون " كرم " مثلاً في البخل ، و" وفاء " صورة للعقوق ، فإن حقائق الأشياء العميقة تخالف مظهرها أحياناً . ولهذا قالوا : " ليس كل ما يلمع ذهباً ". وقالوا :"من الخارج رخام ومن الداخل سُخام " .

ومثل هذا نجده في الوجوه . فهم يقولون : " اطلبوا الخير عندحسان الوجوه". ولكنا نجد الحسن خداعاً في كثير من الأحيان . ربما وجدنا أجمل النفوس في أقبح الناس وجهاً . ووجدنا أَصبحَ

الناس وجهاً غاية في دمامة النفس . ولهذا يجعل بعـــض الكتّــاب أبطالهم مشوّهين أحياناً ، ليحوّلوا نظر القـــارئ إلـــى بواطنـــهم . فالنفوس أحياناً تكون كمناجم الذهب : كلما غاص الإنســـان فيـــها لمعت عروقها لمعاناً أشد .

خطر لي أن استعرض بعض من عرفتُ من حسان الوجوه أو حسان الأسماء ، فوجدت نسبة الدمامة النفســية عاليــة فيــهم . ووجدت أعلى نسبها أحياناً في أناس جمعوا الحُسْنين : حســـن الوجــه وحسن الاسم !

واحد منهم عرفته أيام المدرسة . كان مثلاً في أناقة المظهر وصباحة الوجه . كان يطوي معطفه على يده فتبدو بطانته من الحرير الأخضر ، تموج في ضوء الصبح . وكان قلّما يرتديه . ويلفّ عنقـــه بشال من الحرير الأبيض . ويغطي عينيه بنوع فاخر من النظارات تكسر عنهما ضوء الشمس . فكان إذا وضعهما خطف أبصارنـــا . وإذا رفعهما بدا في عينيه السوداوين الحالمتين ، ونعومة سماته ، وانتظام شعره ، والتماع بَشَرته ، كآلهة الأســاطير ! وكان ينتســـب إلـــى أسرة كريمة كانت يومذاك واسعة الجاه ، معروفة بإحسانها وصدق معاملتها . وكان في اسمه ما يذكّر بالصدق والإحسان ، ولكنه ، مع هذا كله ، كان أكذب الناس وأمكرهم وأقدرهـــم علـــى النصـــب والاحتيال . لم ينته العام حتى كان سطا علينا جميعاً . وقد علمتنـــي الحياة بعدها أن هذا النموذج شائع فيها !

وواحد آخر ، كان في اسمه ما يشير إلى النظافة . ولكنه كان واضح الإهمال لنفسه . لم أره يوما غسل وجهه وسرّح شعره ! كان جَوربه يَبين ، تحت بنطاله القصير ، متهدلاً على الحذاء أحياناً . وكان فقيراً ، ولكنه كان كريماً أنوفاً . خرجنا مرة في إحدى الرحلات ، وحاولنا أن نحتال لنعفيه من تكاليفها . فلما أحس بنا امتلأ وجهه بالدم . وأخذ يصيح كأنما لدغته أفعى . ومضت أسابيع بعدها وهو يأبى أن يغتفر لنا هذه السقطة !

وواحد كان دميم الصورة ، في جوارحه ضخامة مفرطة . وزاد أهله فسموه "صخراً " ! ولكنه كان عذباً زلالاً لا يرد لأحد طلباً . كان صافي السريرة ، لطيف العشرة ، جميل الظن بأصحابه ، بالغ الوفاء لهم . وكان من شرقي القطر ، على نهر الفرات . فسميناه " فراتاً " ، فأعجبه الاسم . كان يرق لنا حين نناديه به كأنما كنا نمنحه أجمل ما يتمناه .

ثم عرفتُ ، بعده ، واحداً يدل اسمه على الرضا . ولكنه كان أفعواناً ، لا يقنع بشيء ، ولا يشبعه شيء ، ولا يقف عند حد . كان لا يرضى أن يُفلت من يده كسب ، على أي وجه يكون . ويبذل نفسه لكل من يسومها . وربما طرحها على أرصفة الطريق . لم أره يوماً ينعم بسكينة الرضا وعز القناعة . ولم أجد في أصحابه من يحفظ له حق الصحبة وصدق المودة ، ويتملّى معه حلاوة الإخلاص ، لأنه هو نفسه لم يكن يسأل عنها .

وعرفتُ واحداً مثله ، يشير اسمه إلى القناعة أيضاً . ولكنه كان كالحوت يلتهم جميع أنواع السمك . وتراه ، إذا حدث ، يميــل برأسه رضاً بالمقسوم وعفّة عن كل شيء . ولكنه كان لا يَعَفّ عن شيء . فكأنه وَكَلَ لنفسه أن يقــف بباب الدنيا ويغلق مصاريعه فــي وجوه الناس ! لا يحتمل أن يرى أحداً ينتفع أمامه بشيء . ويـــترك رجله دائماً في الرِّكاب لينطلق وراء الصيد المتاح !

*

على أن هذا الذي أقوله هنا لم يعد يلفت أحداً هذه الأيـام . فقد أصبح شائعاً في الناس أن تكون لهم أســماء لا تنطبــق علـــى حقائقها ، وصور لا تنطبق على مضامينها . واعتـــادوا ، إذا هــم دخلوا بيوتهم ، أن يخلعوا عنهم أسماءهم وصورهم ، كما يخلعــون ألبستهم ، ويَرتدوا حقائقهم ومضامينهم التي يرون من تمام الحيطــة أن يخلفوها في البيت ، وأن يقفلوا عليها أشد الأقفال !

١٩٨٨/٥/١

الملحق

لو كنتُ شاعراً

لو كنتُ شاعراً

(١)

لو كنـــت شاعراً لغزلت من خيوط الشمس وشاحاً لكتفيـكِ العاجيتين .

ولجعلت من فتور جفنيكِ فتور الغروب .

وملأت حناجر الطيور من عذوبة صوتك .

وأسلت المياه على خرير ضحكاتك .

وأصبح الكون يسطع بلالاء وجهك .

وكَحلّتُه بالحاجبين

(٢)

ولو كنت شاعراً لما نبت الزهر إلا من راحتيكِ الوديعتين .
ولانسكبت حمرة خديكِ في أفق الأصيل .
ولحام النحل على شفتيكِ .
ولصار الحمام يمشي على خطواتكِ الرشيقة .
ويلقط الحَب على وقع قدميكِ .
حبتين ... حبتين

(٣)

ولو كنت شاعراً لذوّبتُ ندى الفجر ، وسكبته حلية لصدرك .
ولدققت من سواد الليل كُحلاً لعينيكِ .
ولاستخرجتُ من طيلسانه شعرتين لخال الخد .
ولضفرت من نجوم السماء إكليلاً لشعرك .
وركزته على مَفرقك الوضيء
وأدرتُ من حوله نور المَجَرات
وشَكَلْت فيه وردتين !

(٤)

ولو كنت شاعراً لهدهدتُ الزمان على صدرك
وجعلته أنشودة ينام على ترجيعها كل الأطفال
ولاستلقتْ على ساعديك أحلام كل النساء
وذابت من حرّ أنفاسك أكبادهن
وانتشر الخصب في الأرض العطشى
وارتوى الزرع وفاض الضرع
ونام الحُلم قرير العين !

(٥)

ولو كنتُ شاعراً لوقفتُ الفَلَكَ عند لقائنا الأخير
ولرجعتُ به إلى الوراء عدد السنين التي فصلتْ بيننا
ولازّينت الأرض لنا زينتها الأولى
منذ دحاها الله في عمق الفضاء كرة ملتهبه
وأخذتْ روحه ترفرف فوق الغَمْر
وتعالىٰ من حولنا هتاف الملائكه :
دمتما .. دمتما مباركين

(٦)

ولكني ، وا أسفاه ، كاتب تتمزق في يديه الكلمات
تذيب قلبَه أحلام الشعراء
وتنطفئ في ليله قوافيهم المضيئه
لا يعرف كيف يركب المَجَرّات
ويُبحر في الليالي المقمره
كاتب مسكين يتهجّى الحروف
حرفين ... حرفين

١٩٩٧/١٢/١٥

وحدك

وحدك ، أيها المسكين ، وحدك
وحدك تجوب طرقات المدينة الموحشه
وتجر جسد المأساة معك
لا تطرق الأبواب
فالناس نيام
أنت ، وحدك ، المتهم
تنبش القبور
وتصرخ في وجوه الموتى
وتجر جسد المأساة معك
وتريدهم أن يصحبوك ... ؟

* * *

كان عليك أن تنسى
فقد دفنوا المأساة
ورصفوا قبرها بالأحجار

وأنت وحدك المتهم
كان عليك أن تنسى
أو كان عليك أن تموت
فالموت وفاء
فلا أنت تنسى
ولا أنت تموت
وتجر جسد المأساة معك !

* * *

وتريدهم أن يفهموك ؟
وتريدهم أن يصحبوك ؟

١٩٩٧/٩/١

الشرفة الحزينة

أيها الطائر الجميل !
وأنت تسبح في السموات العاليه
وتغيب أحياناً في طيات السحاب
افردْ جناحيك الأبيضين
واخفق في قلب الريح
وناد الشواطئ البعيدةً
حيث يطوي الصيادون شباكهم الزمردية
بعد أن يفرغوها على الصخور القريبه
فتضطرب الأسماك الصغيرة في الماء الضحل .

* * *

فإذا اجتزت الفضاء وأنت ترقبها من بعيد
واقتربت من الشاطئ المطرز بالورد
وأويت إلى عشك الصغير
ونام الكون كله من حولك
فلم تسمع إلا صرير الجنادب القلقه

وحفيف الأشجار التي تبوح بأسرارها
فاذكر عصفوراً جاب السموات معك
ومسّ بجناحه العريض جناحك الأبيض
ومسح بمنقاره منقارك الذهبي اللامع

* * *

فإذا أثارتك ذكراه ، أيها الطائر الجميل
فاقصد شرفته الحزينه
وغرّد فيها لحنك السماوي

١٩٩٧/٩/١

دعاء آخر أيام العيد

(١)

يا رب !

كما أعنتني على طاعتك فأعنّي على الرضا بحكمك .

وكما أعنتني على كبت شهوات الجسد فأعني على إطلاق رغبات الروح .

وعلمني يا رب كيف أحسن دون أجر

وأرضى دون عتب .

وأسمح دون مَنّ

وأغتفر دون ألم

ويا رب .. علمني كيف أستكين للحق مهما بلغت قسوته .

وأكون في صف أصحابه مهما تمادوا في طلبه

وعلمني ،في المقابل ، أن أتحرر من النزوع إلى ظلم من ظلمني

وإهانة من أهانني ، دون تفريط بالنفس .

وأن أجعل العقل حكَماً في المنازعات

وصفاء النية مطلباً في الأحكام

ويا رب ! دعني قادراً على كره الشر مهما يبلغ إغراؤه

والكلَف بالخير مهما تبلغ الخسارة فيه

وعلّمني الفرح بالحياة
والثقة بعدل نواميسها
واجعل المحبة روضي
والألفة سميري
وحررني من حرارة الجهل وسورة الغضب للنفس
واجعل السعي إلى المعرفة سبيلي
وسلام النفس منتهى غايتي

(٢)

يا رب !
وقد مضى شهر الصيام دون أن أتطهر فيه بماء المحبه
فإني ما أزال أتضور من الإحساس بجوع الروح
وألوب من عطش الرضا
وأبحث عن طهر الجوارح
وما أزال أفتقد سكينة النفس
وانتظر طيرها النازح وراء جدران الزمن
فأطلق يا رب جناحيه في طريق العودة إلينا
ففراخه ما تزال تنتظره في عشها الصغير
والشجرة التي غنى على غصونها تهدلت أوراقها من شدة الحزن
وحارس الغابة تعبت عيناه من طول التحديق في عتمتها

وما يزال الطير يتقلب في رياح الغربة
والوحشة في غيبته تقرض حوافي الروح
والصمت يخيم على جميع الدروب
فيا حارس الأفلاك ائذن لها أن تدور
" فبابك مفتوح للراغبين
ويدك مبسوطة للسائلين
يا غياث المستغيثين"

(٣)

ويا رب !
امنحني القدرة على امتلاك صبر المحبين
وأكرمني بالفهم والسعة
وبالألم الشريف
لأحسن شكر من أساء إليّ
وأُسمع من أسأت إليه وجيب قلبي
فأنعم بسلام النفس
وأرتفع فوق دواعي الخوف
وفوق معاني الموت
آمين .

٢٠٠٠/١/١١

الفهرس

للمؤلف

١ـ فنون النثر في المهجر :
الكتاب الأول : المضمون وصورة التعبير ـ الطبعة الرابعة (دار الفكر بدمشق١٩٨٣) .
الكتاب الثاني : القوالب الفنية ـ الطبعة الثانية (دار الفكر الحديث بلبنان ١٩٦٥) .

٢ـ التعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه (جامعة دمشق ١٩٨٣) .

٣ـ معالم في النقد العربي الحديث ـ الطبعة الثالثة (جامعة دمشق ١٩٨٣) .

٤ـ الرواية في أدب النكبة ـ الطبعة الثانية (جامعة دمشق ١٩٨٣) .

٥ـ شجرة الدر : دارسة صغيرة للرواية التاريخية ـ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٥) .

٦ـ دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت ـ الطبعة الثالثة (دار الفكر بدمشق ١٩٨٤) .

٧ـ شعر دعبل بن علي الخزاعي ـ الطبعة الثانية (مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣) .

٨ـ من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ (اختيار وتدقيق) ـ (وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٠) .

٩ـ نصوص مختارة من النثر العربي الحديث (أعلام الرواد) ـ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٦) .

١٠ـ نصوص مختارة من الأدب العباسي ـ الطبعة الثانية (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٩) .

١١ـ غروب الأندلـس : دراسة صغيرة للمسرحية الشعرية ـ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٥) .

١٢ـ الملتقى : دراسات في التراث الإسلامي ـ (المستشـارية الثقافية الإيرانية بدمشق ٢٠٠١) .

١٣ـ الصدى : مذكرات ـ (دار الثريا بحلب ٢٠٠١) .

١٤ـ مسامرات نقدية ـ (دار القلم العربي بحلب ٢٠٠١) .

١٥ـ المقتطـف : مـن مجالس الوجد وأحاديث الألفة والسـمر (دار الثريا بحلب ٢٠٠٢) .

*

قيد الطبع

١ـ أوراق مهجرية : بحوث ومقاربات . أحاديث ومحاورات . رسائل .
٢ـ فواصل صغيرة في الثقافة والتاريخ والاجتماع .
٣ـ أحاديث الإثنين : خواطر وأحاديث (خمسة أجزاء) .
٤ـ الكشكول : بحوث ودراسات في الأدب والنقد .
٥ـ ديوان العرب : الشعر والشعراء من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث (خمسة أجزاء) .

من المقدمة

حاولت وأنا أكتب هذه الخواطر أن اقرب فيها،ما أستطعت ، من واقع الحياة التي نحياها في البيت والشارع ومطارح العمل،وأخالط الناس في مواطن الجد والعبث وأختزن تعليقاتهم على مايقع لهم وللناس من حولهم . واغتنمت فرصاً أتيحت لي فصورت أطرافاً من حياتي في البيت،وهي حياة الناس في بيوتهم مع أزواجهم وأولادهم ومخالطيهم ، رميت فيها إلى المشاركة في تعزيز دور المحبة والألفة والفهم والمسامحة في حياتنا ، داخل الأسرة وخارجها . فهذه الخواطر والأحاديث والأسمار والمواجد لم تكتب إذن بقصد المتعة وحدها ، ولكن كتبت، مع هذا القصد،لغاية أبعد : أن تجعل الناس أقدر على فهم أنفسهم ، وأقرب من حقائق حياتهم . وتجعلهم أحدّ إحساساً بالأشياء وأعمق نفوذاً فيها ، وأكثر حباً وأقل شراً . وتقوي فيهم نزوعهم إلى الفرح بالحياة دون الاستهانة بتبعاتها ، وإلى متعة المعرفة دون غرور اكتسابها .

دار الثـريا للنشـر
ص.ب ٥٩٢٨ هاتف ٤٧٨٥٢٢٧

حافظ للتصميم والطباعة ٢٢٢٨٢١٤